كجثة في رواية بوليسية

رواية

عائشة البصري

الدار المصرية اللبنانية



كتبت هذه الرواية أثناء فترة الحجر الصحي،

في ظل انتشار جائحة كورونا.



إهـداء

إلى موتى وباء كورونا،

في ذكرى موتي الأول.

"..عندما تقرأون هذه الصفحات، سيكون الوضع قد تغير والأرقام اختلفت. سوف ينتشر الوباء، ويصل إلى جميع المناطق المتحضرة أو سيتم ترويضه.. مهما سيحدث، ستظل تداعيات هذا الوباء قائمة، ذلك لأننا لا نتعامل مع حادث عرضي(...). لقد حدث من قبل، وسيحدث مرة أخرى".

باولو جيوردانو

"العدوى"

"لا يبقى كلُّ شيء على حاله، فيما كلُّ ما يحيط

بك هو الموت"

من فيلم سينمائي

1

- مرحبًا، أخيرًا وصلتِ. منذ عشر سنوات ونحن في انتظار عودتكِ.

صوتٌ كرد الصدى يأتي من بعيد.

حملقتُ في ظلال وجه غريب.

بيني وبين الوجه كثافة ضباب، كحاجز يزداد سمكًا كلما اقترب.

أنام على سرير أبيض، مرتفعٍ قليلا عند الرأس، بلا وسادة ووجهي للسقف. فوق رأسي جهاز تخطيط القلب، يصدر رنينًا متواصلًا ويردد دقات قلبي. أقطاب كهربائية على صدري موصولة بشاشة الجهاز بأسلاك ملونة.

ضوءٌ قويٌّ ينبعث من مصباح دائري يتوسط السقف..

برد أزرق يملأ المكان.

الغرفة بيضاء. البلاط شديد اللمعان يعكس ظلالًا لا أعرفها.

جوّ الغرفة يذكرني بغرف مماثلة، ويوقظ حنينًا غامضًا لمكان لا أذكره. لولا البرد لكانت الغرفة من الأماكن التي أحب أن أنتمي إليها.

غموض مُريب.. هل هذه الغرفة في داخلي، أم أنا التي في داخلها؟

عند مقدمة السرير، يقف رجل ببذلة عسكرية بأزرار ذهبية وكتافات حمراء. نياشين و أوسمة على الكتف اليمنى، وجهاز لاسلكي صغير مثبت بالكتف الأخرى. قامة طويلة، عينان زرقاوان جاحظتان قليلًا، شعر أصهب. لون فاتح وبقع النمش تغطي كامل الأنف. ندبة هلالية على الجبين. ينتصب مستقيمًا بانضباط عسكري.

قدم الرجل نفسه:

- أنا المقرر، وهذه مساعدتي.

أشار إلى امرأة جالسة أمام طاولة مقابلة للسرير، ثم استطرد:

- هنا، ليس من الضروري معرفة الأسماء.

المرأة، كذلك، ترتدي زيّا عسكريّا. امرأة ثلاثينية، بملامح آسيوية، عينان مشقوقتان، ووجه بيضاوي مؤطر بشعر شديد النعومة والسواد. تبدو المرأة في كامل زينتها رغم وجهها المتصلب، وملامحها الصارمة. تناقض صارخ بين الزي العسكري والوجه المصبوغ بالألوان الفاقعة.

فوق الطاولة، جهاز كومبيوتر، وعصا طويلة لم أميز مادتها. سأعرف فيما بعد أنها عصا كهربائية صاعقة، تستطيع المرأة أن توصلها حتى سريري، دون أن تتحرك من مكانها.

المرأة المساعدة تقوم برقن وتدوين ما يدور بيني وبين الرجل، دون أن تنظر إليّ.

تقدم الرجل نحوي خطوة، تحسس سلاحًا مثبتًا بجذعه:

- أنت هنا في مكان محايد، خارج الحياة وخارج الموت.

جسدك مغلق، وروحك سجينة إلى حين الخلاص، خلاصك إجازة التقرير. لإجازة تقريرك، نحتاج فصلًا من حياتك، بالضبط، منذ اختفائك في السادس من فبراير 2010 إلى الآن. سنسألك بعض الأسئلة، وعليك أن تجيبي جوابًا صادقًا، محددًا، بلا لف أو دوران. نحن نعرف أنك كاتبة، مهنتك اختراع الكذب، لديك مخيلة بارعة في حبك الحكايات وقدرة لافتة على الإقناع بها.

الرجل يتكلم وهو يتحرك بشكل دائري حول سريري:

- حسب قانون المركز، عليّ تعريفكِ بحقوقك وواجباتك. أولًا، أنت تحت المراقبة الإلكترونية، هناك كاميرات موزعة في أنحاء الغرفة. الجهاز فوق رأسك هو لمراقبة حالتك النفسية. ثانيًا، حبال صوتك مبرمجة على انتقاء الكلام داخل سياق هذا الاستجواب. الكلام الخارج عن السياق، لن يخرج من شفتيك مهما حاولت. ثالثًا، لديك الحق في رسالة أخيرة عند نهاية التقرير، لشخص ستختارينه. حفاظًا على سلامتك، وضعناك في جناح غير المدخنين. نعرف حساسية عينيك لدخان السجائر، ومرضك المزمن. كلنا في المركز نسهر على راحتك، ونحرص على عبورك سالمة.

حك رأسه، كما لو أنه استدرك شيئًا نسيه:

- نصيحة أخيرة، لا تصدقي تهيؤاتك، مهما كانت. في هذا المكان، يفقد البشر زمام عقولهم، تتهيأ لهم أشياء ويتخيلون أشخاصًا.

أين أنا؟ من أين عدت وإلى أين؟ كيف طفوت فجأة على هذا السرير؟ مَن هذان الشخصان؟

إحساس بعدم الاطمئنان، وتوجس من خطر قادم.

حاولت أن أتذكر شيئًا يتعلق بالتاريخ الذي حدده الرجل، السادس من فبراير لسنة 2010. ماذا وقع في هذا التاريخ؟ هل هو ذكرى حدث ما، عيد ميلاد مثلًا؟

تصفحت ذاكرتي، لا شيء مهم، غير حقيبة، وتذكرة سفر إلى نيكاراغوا عبر مدريد، تحمل هذا التاريخ.

أنا تائهة في مكان ما.

جلت ببصري. الغرفة مثلثة الأضلاع، النافذة الوحيدة

كذلك. لماذا هي مثلثة؟ العادة أن تكون النوافذ مربعة أو مستطيلة، وإن حادت عن العادة، تكون دائرية، في الحمامات مثلًا. لكن، كل شيء في هذه الغرفة مثلث الأضلاع، الباب، السرير، الطاولات الجانبية، حتى الطاولة التي ترقن عليها المساعدة. على الطرف الذي يشكل الزاوية الحادة للطاولة ثلاثة مجلدات قديمة بتجليد يدويّ فاخر وخطوط مذهبة. الكتب السماوية الثلاثة، القرآن والإنجيل والتوراة..

كتب مقدسة في هذا المكان؟ هل سيجعلونني أقسم على القرآن؟ هل سيمتحنونني في حفظ آياته؟

من النافذة، تتداخل الأصوات، صرير عجلات، صفارات سيارات تمر بسرعة، قد تكون سيارات إسعاف، أو لرجال الإطفاء أو الشرطة. لا شيء واضح. أقدام تعبر في الاتجاهين، فقط أقدام وسيقان. يبدو أن الغرفة توجد في طابق أرضي أو قبو. أو أنها قبر نسي مفتوحا على الحياة.

جلبة وراء الباب المغلق، مكبر صوت يرسل موسيقى عسكرية.

تتوقف الموسيقى، يُعْلَنُ عن أوامر أو تنبيهات:

"نظرًا لكثرة الوافدين، نرجو منكم الانتظار، سيتم التواصل معكم فور انتهاء أحد مقرري المركز.. شكرًا على تفهمكم".

يبتعد صوت المكبر، ثم يعود أكثر وضوحًا، كأن ريحًا قوية تتلاعب به.

لسنا وحدنا إذًا، هناك آخرون. الغرفة جزء من بناية كبيرة. هناك أمل أن يسمع أحد ما صراخي إن احتجت للنجدة..

المكان بلا رائحة. أحاول أن أعزل العناصر المكونة للهواء، لا رائحة عطور، أو معقمات، لا رائحة رطوبة أو مطهرات. ولا حتى روائح بشرية. حين اقترب مني الرجل وانحنى على سريري، استنشقت الهواء، لعلني أجد فيه رائحة ما تسعفني في معرفة مَن يكون، كان بلا رائحة.

كما لو أن الرجل قرأ أفكاري:

- لا تبحثي عن رائحة، لا رائحة في هذه الغرفة. لقد جُردت من حاسة الشم. ستستعدينها تدريجًا، كلما أبدَيْت تعاونًا. نصيحتي أن لا تجهدي نفسك في البحث والتساؤل.

احتفظي بطاقتك ما أمكن، ستحتاجينها في هذه الليلة الطويلة، خاصة ساعة الحسم..

ارتياب مُرعب.

ساعة الحسم؟ ماذا يقصد بساعة الحسم؟ هل سيقومون بتعذيبي؟ هل سيقتلونني؟

جربت أن أشغِّل الحواس الأخرى غير السمع والنظر. لا شيء، كلها شبه معطلة. أنا خارج حواسي.

حاولت أن أحرك يدي، كانت مشلولة. جربت أن أنهض، لكنني كنت مقيدة إلى السرير بأحزمة من ضوء.

- أنت مقيدة، حتى لا تلحقي الأذى بنفسك، أما نحن فغير قابلين للأذى..

نبهني الرجل.

صرخت طالبة النجدة من أصحاب الأقدام العابرة خلف النافذة. لا صوت، حنجرتي متيبسة.. الأقدام تمضي دون

احتفظي بطاقتك ما أمكن، ستحتاجينها في هذه الليلة الطويلة، خاصة ساعة الحسم..

ارتياب مُرعب.

ساعة الحسم؟ ماذا يقصد بساعة الحسم؟ هل سيقومون بتعذيبي؟ هل سيقتلونني؟

جربت أن أشغِّل الحواس الأخرى غير السمع والنظر. لا شيء، كلها شبه معطلة. أنا خارج حواسي.

حاولت أن أحرك يدي، كانت مشلولة. جربت أن أنهض، لكنني كنت مقيدة إلى السرير بأحزمة من ضوء.

- أنت مقيدة، حتى لا تلحقي الأذى بنفسك، أما نحن فغير قابلين للأذى..

نبهني الرجل.

صرخت طالبة النجدة من أصحاب الأقدام العابرة خلف النافذة. لا صوت، حنجرتي متيبسة.. الأقدام تمضي دون

توقف.

أرشح عرقًا.

ارتياب. شك. خوف.

لم أكن يومًا على هذا القدر من الخوف. عليّ أن أطرده، فحين نخاف نفقد السيطرة على العقل. كما أن بعض المخاوف القوية تتحقق.

الغموض أثار حواسي، أيقظها.

شعرت، للحظة، أنني أستعيد جزءًا من قدراتي الحسية.

هناك خطأ ما. خطأ أدى إلى وجودي في هذه الغرفة مع شخصين مجهولين غريبي الأطوار. قد يكون خطأ في كتابة الاسم، أو تشابهًا في الأسماء. أعرف كاتبة تحمل نفس اسمي. وكثيرًا ما تخلط المنابر الصحافية بيننا، كأن تضع صورتها مع خبر يخصني. حتى محرك غوغل يخلط بين سيرتينا الذاتية. موسوعة ويكيبيديا ألحقت عناوين كتبي بمؤلفاتها.. لو تعقد الأمر أكثر، سأخبر الرجل بهذا التشابه.

ربما أخذوني باسمي الأول.

تقول بعض الأساطير أن الاسم الأول للإنسان، هو الذي يسجل في كتاب الأزل. و به ستتم محاكمته يوم القيامة.

لم يكف أنني، منذ الولادة، يتجاذبني عالمان، عالم الموت وعالم الحياة. بل عشت فترة من الزمن ضائعة بين اسمين. اختلف والداي حول الاسم. والدي أصر على اسم والدته، فكان يناديني فاطمة. وأمي كانت تحاول توجيه حياتي نحو الفرح والسعادة، واختارت لي اسم "سعيدة". طال خلافهما، ست سنوات وكلٌّ يناديني باسم. إلى أن وصلت سن التمَدْرُس، فكان عليهما تقييد اسم رسمي في الوثائق الإدارية. سلطة الأب فرضت فاطمة.

هل اسمي، حقّا، فاطمة؟.. ما كان اسمي قبل هذه الغرفة؟

تتوالد أفكار مجنونة في عقلي.. و لمَ لا يكون خطأ في الجثة؟ أنا التي دخلت جسدًا ليس لي، وبعد قليل سينادي مكبر الصوت أو يتصل أحد في اللاسلكي ليخبر الرجل أن هناك خطأ في صاحبة الجثة.. عند هذا المستوى من التفكير نبهت نفسي، إنني أنساق إلى جنونهما، فتوقفت.

جهاز اللاسلكي يبعث طقطقات وجملًا متقطعة:

".. فيروس قاتل يجتاح الصين. حوِّل.. مدينة ووهان تحت الحجر الصحي. حوِّل.ْ.".

الرجل، وَلْأُسمِه المقرر، كما قدم نفسه، لا يبدي أي اهتمام بما يصدره جهاز اللاسلكي. بل تابع بنبرة واثقة:

- نحن نعرف حياتك قبل السادس من فبراير 2010، قد دوَّنّا تفاصيلها في موتك الأول. ما يهمنا من ذاكرتك هو ما حدث بعد ذلك التاريخ.. نريد، كذلك، ولكي لا تهربي مرة أخرى من النفق، التأكد من جهوزيتك للموت. للتوضيح أكثر، نحن لا نقرر مَن يموت ومن يحيا، هذا ليس من اختصاصنا، نحن، فقط، نعطي إذن الخروج من الحياة، لمن توفرت فيه الشروط واستوفى تقريره.. الموت ليس سهلًا كما يبدو، بل تلزمه أدلة دامغة. هذا ما يجعل التنبؤ بساعته مستحيلًا.

ثم باستهزاء:

- أنتم، بني البشر، تقضون العمر في التجول بين الموت

والحياة، دون أن تدركوا ذلك. الموت والحياة حالتان متشابهتان، الأعمى هو الذي لا يستطيع أن يدرك ذلك، أقصد أعمى البصيرة. للشعراء، فقط، القدرة على التنبّؤ بموتهم في قصيدة.

استجمعت شجاعتي:

- لقد أمسكتم بالمرأة الخطأ، أو أخطأتم في الجثة، فأنا شخصيّا لم تكن لديّ أسباب لموت مفاجئ.

- سيدتي، لا أحد يعرف مبررات موته الخاص.

2

مَن هذان الشخصان؟ لماذا يحاولان إقناعي بأنني، منذ عشر سنوات، كنت في هذا المكان، وأنني هربت من نفق؟ أي نفق؟

الجليُّ الآن، أنني أخضع لاستجواب يخص معلومات من الذاكرة.

هل أنا في مخفر للاستنطاق، وهذان محققان يسعيان لمعرفة معلومات سياسية، وسيخضعاني لغسيل الدماغ؟ لا أذكر أنني كنت، في السنوات الأخيرة، معارضةً لسلطة ما. نعم، كان ذلك في فترة الشباب، الآن أنا مواطنة منضبطة، امرأة مسالمة ومهادنة إلى حد الجبن. قد أختلف مع الحكام، لكنني أعتبره اختلافا في وجهات النظر..

لا كدمات ولا خدوش على جسدي، تدل على أنه تم اقتيادي إلى هذا المكان بالعنف. لولا بعض الانقباض في صدري لقلت إنني في صحة جيدة..

تتوقف الموسيقى العسكرية، يعلن مكبر الصوت:

"نأمر المقررين الاحتياطيين بالالتحاق فورًا بالمركز، هناك حالة طوارئ قصوى..".

يستأنف المقرر استجوابه:

- أمامنا ليلة كاملة، لإنهاء التقرير. المهم أن تبدئي من اللحظة التي غادرت فيها النفق، وطفوت على سرير في العناية المركزة لمصحة خاصة بأمراض القلب والشرايين بمدينة اسمها الرباط.

ليلة كاملة؟ هل هو أعمى كي لا يرى ضوء النهار عبر النافذة؟

اقترب الرجل أكثر وبنبرة تحذير:

- هذا التقرير هو نوع من إبراء الذمة، لا تنسي أنك الآن تحت قسم الموت، فالتزمي الحقيقة.

فتحت فمي، شفتاي تتحركان بتثاقل:

- أذكر مدينة اسمها الرباط، لكنني لا أذكر النفق ولا حدث المصحة. في السنوات الأخيرة أصبحت ذاكرتي ضعيفة، لا تحتفظ إلا بالقليل، كل شيء ينزلق منها كما لو أنها دهنت بمادة لزجة. أنسى الأحداث والأسماء وأرقام الهواتف، أنسى النقود في محول البنك بعد عملية السحب، أنسى أسماء أبنائي، وأخلط بينهم.

جهاز اللاسلكي، يعود لإرسال نشرات إخبارية:

"عن وكالة المغرب العربي للأنباء في الرباط: إصابة وزير النقل المغربي بفيروس كورونا إثر عودته من بلد أوروبي.. حوِّلْ".

المقرر لا يؤكد التوصل بالخبر، كما يُفعل عادة.

- .. مرة، كانت تمطر بشدة، حين خرجت من مركز تجاري وسط المدينة، وقفت طويلًا أمام بابه، حيث باعة الورد. نسيت أين أنا، وطريق العودة للبيت. نسيت حتى اسمي ومن أكون. كانت لحظة بياض وخواء رهيبة. من حسن الحظ، أن الهاتف رنَّ، في تلك اللحظة، وسجلت الشاشة اسم ابني، نطقت بجملة واحدة مستنجدة: "أنا ضائعة، أقف أمام سوق

للورد، أريد العودة للبيت، لا أعرف الطريق" وأجهشت بالبكاء..

- هل حدث ذلك قبل موتك الأول أم بعده، أعني هل قبل السادس من فبراير 2010 أم بعدهُ؟

- ربما بعد ذلك، ليس لديّ اليقين.. لا أذكر.. ما الفرق؟

- هناك فرق كبير، أجاب المقرر، إذا حدث وفقدت ذاكرتك قبل ذلك التاريخ، فعلينا إعادة كتابة حياتك منذ الولادة، أو على الأقل إدخال تصحيحات..

هل هما صحفيان يكتبان سيرة حياتي؟ مَن يهمه أن يقرأ سيرة امرأة عادية، ولدت في قرية صغيرة، وعاشت على هامش الحياة؟

أفزعني البدء من جديد، قد يطول التحقيق، وأنا أريد أن أعود إلى حيث كنت..

أين كنت؟ ما هذا الضباب الذي يحجب الذكريات؟

الجواب يحتاج إلى تركيز.. تفككت الحروف والكلمات، كأنني، ولأول مرة، أتعلم تركيب الجمل. أعدت صياغة الجملة في عقلي.. أريد أن أعود إلى مقعدي، حيث تركت حقيبتي وكومبيوتري، في قاعة انتظار بمطار سأتذكر اسمه فيما بعد.. سيسرقون أغراضي، كومبيوتري على الخصوص، ففيه التصميم والمادة الأولية لرواية أشتغل عليها مؤخرًا، عن دونجوان فقد الذاكرة.. استدركت وعدلت الجواب:

- أظن، بل أؤكد، أن فقدان الذاكرة، كان بعد ذلك التاريخ.

- صحيح، يحدث هذا كثيرًا لمن تعرضوا لسكتة قلبية مع توقف التنفس. عدم وصول الأوكسجين إلى المخ، ولو لثوان، يخرب الذاكرة.. هذا ما حدث لكِ..

قاطعته:

- ربما ما سأقوله حدث قبل ذلك التاريخ، لكنه سبب آخر من أسباب ضياع الذاكرة الآن. فقد قضيت نصف العمر وأنا أجتر بحسرة، ما في الذاكرة. حتى أتمكن من الاستمرار في شراكات مؤذية، كان عليّ أن أنسى. جربت كل الوصفات، إلى أن عثرت يومًا على حكمة قوية للكاتب "خورخي لويس

بورخيس"، قد تعرفه، يقول فيها: إن النسيان هو الانتقام الوحيد والغفران الوحيد. فتبنَّيت حكمته. كنت أقصد نسيان بعض الذكريات المؤلمة لكنني، خطأً، أغلقت الذاكرة على كل ما فيها، من ألم وسعادة، فرح وحزن.

جهاز اللاسلكي:

".. منظمة الصحة العالمية تعلن تصنيف فيروس كورونا كوفيد -19 جائحة عالمية.. حوِّلْ"

لا اهتمام.

- لا بأس- حثني المقرر- لنكمل، على مهلك، لدينا الوقت الكافي قبل أن تنطفئ حياتك تمامًا. نحن نستغل الساعات الفاصلة بين الوفاة والدفن. وقت تهييء الجثة، غسلها، تعطيرها، ووصول العائلة والأصدقاء لتشييع الجنازة.. إنه، عادة، وقت كاف لإنهاء التقرير.

تغسيل جثة؟ جنازة؟ دفن بعد ساعات؟.. إنني حقًا أمام معتوه.. على هذا الأساس يجب أن أهرب قبل الفجر.

في مرمى بصري، باب صغير من الزجاج، قد يكون بابًا لحمام ملحق بالغرفة. تساءلت إن كانت هناك نافذة في الحمام يمكنني الهروب عبرها إلى الشارع.. فكرة غير صائبة، باب الحمام من الزجاج، ومزلاجه من النوع الرخيص سريع الانكسار، لن يكون لديّ الوقت الكافي للخروج من النافذة، إن وُجدت، قبل أن يقتحم الرجل الضخم الحمام. وإذا حدثت معجزة وخرجت، فمن سيضمن لي أن هناك بابًا خلفيّا يؤدي للشارع؟

لا فرصة للهروب، ما بيدي سوى انتظار نجدة من الخارج. في انتظار ذلك عليّ أن أجد قصة مغرية، أشد بها انتباه هذين الشخصين المجنونين، ريثما يظهر أحد ما لإنقاذي. كاختلاق قصة حياة مثلًا، بأحداث، مشاعر، شخصيات، حبكة قوية، لغة مباشرة بعيدة عن الاستعارة والمجاز، إذ لا يبدو أن الرجل ولا المرأة يستسيغان الكلام الشاعري..

طالما أنا أحكي سأربح وقتًا أكثر، لأمطط الحياة.. شعار اللحظة، احك حكاية كي تعيش.

طقطقة جهاز اللاسلكي:

".. فيروس كورونا القاتل، هل هو إرهاب بيولوجي؟ أم خطأ بشري؟ أم حساء الخفاش؟.. تبادل الاتهامات بين الصين وأمريكا.. حوِّلْ".

المراقب لا يبدي أيَّ رد فعل على ما ينقله اللاسلكي من أخبار خطيرة.

حكيث:

- أذكر أنني كنت وسط حشد من الناس، كنت في مظاهرة أو على شاطئ.. لا، في محطة قطار.. بل كنت في مطار، في قاعة إركاب، مسافرة إلى مهرجان شعري في نيكاراغوا، السفر كان عبر مطار باراخاس في مدريد، حين أحسست بألم في ساقي اليسرى. لأول مرة ومنذ سنوات نسيت أن أرتدي الجوارب الطبية. لم أقلق، استبعدت إمكانية الجلطة. فأنا أواظب على الدواء المضاد لتخثر الدم، وأجريت التحاليل المعتادة قبل السفر بيومين. الـ "تي بي TP" كان 32 في المائة والـ "إي إن إير INR" 2,44، معدل مضبوط لمن يعانون هذا المرض المخاتل. لكن، بعد دقائق انتقل الألم إلى ذراعي اليسرى مع صعوبة في التنفس.. نُقِلتُ إلى العناية المركزة..

تطلعت المساعدة إلى شاشة الكومبيوتر، ولأول مرة تكلمت:

- إنها تفاصيل موتها الأول.

نبهني المقرر:

- هذه تفاصيل عايشّاها ودونّاها من قبل، لننتقل إلى اليوم الذي غادرت فيه المستشفى. كان ذلك بعد عشرين يومًا في الإنعاش والعناية المركزة. ماذا حدث بعد ذلك؟ آخر ما سجلناه هنا، أنك هرولت هاربة من النفق، وأنت تصرخين: أريد أن أعود للبيت، أبنائي صغار ومازالوا في حاجة إلى أم.. أريد أن أكتب المزيد من الشعر.. أريد أن أكتب الحقيقة.

- آه، فهمت، تريدني أن أتحدث عن التحول من الشعر إلى الرواية؟ هذا السؤال طرح عليّ كثيرًا بعد التاريخ الذي ذكرته، لأنه التاريخ الذي كتبت فيه أول رواية، حين قررت أن أقول الحقيقة وأسميّ الأشياء بمسمياتها.. لم أقصد ذلك التحول، أو على الأقل، لم أتعمده. بعد العودة من النفق، أصبحت الأشياء أكثر وضوحًا. لنقل إنني عدت بضوء في داخلي أنار عقلي، فاتّضحت الرؤية..

- لا نريد حياتك الافتراضية، تهمنا حياتك الواقعية، الأولاد، العائلة الكبيرة، الأصدقاء، نجاحاتك، فشلك، خيباتك..

تضايقت من أسئلته الفضولية. ماذا يهم هذا الرجل في تفاصيل حياتي؟

مكبر الصوت:

".. يجب على الوافدين التخلص من الأعضاء البديلة عند مدخل المركز، أو وضعها في مكتب الأمانات : أطقم الأسنان، الأرجل والأيدي والمفاصل الاصطناعية، الشرائح الإلكترونية والبطاريات.. هذه الأشياء تعيق التفتيش الإلكتروني.. نشكركم على تعاونكم".

أخفيت ضيقي.. لا بأس، فلأتذكر بصوت مرتفع، لعل ذكرى من الماضي تربطني بالحاضر:

- عدت من المستشفى إلى بيتي بقرار التغيير والتحرر. فقد وعيت حينها بقيمة الحياة. وفي لحظة شجاعة نادرة، أدخلت تعديلا جذريا على غرفة الكتابة، فكل شيء، بالنسبة

لي، يبدأ من غرفة الكتابة. غيرت روتين الغرفة، أزحت الكرسي من الشرفة، لن أحتاج كرسيّا لأتأمل الغروب، سأنتصب واقفة كل صباح لأحيي شروق الشمس.

- فتحت الباب على مصراعيه، طردت الكثير من الشعراء والرواة والمفكرين. بعض الكتب تصبح، بعد قراءتها، جثثًا مركونة على الرفوف، تغري العثة اللامرئية بالتوالد بين الأوراق الصفراء. كما أن أغلب الكتابات تصيب بالإحباط وتلوث أذواق القراء.

غيرت مكان الكومبيوتر، وضعته في مكان أكثر ضوءًا، قرب النافذة، لعله يغير معطياته وتصبح كتاباتي أكثر إشراقًا وتخففًا من سوداوية اللغة. أفرغت سلة المهملات من نصوص مبتورة ورسائل لم ترسل ثم تركتها تنزلق إلى الشارع.

اعتدلت المكتبة في الفراغ، وصفا الهواء. تهورت، وهو ما ليس من طبيعتي، وتماديت، فغيرت المشهد خارج الغرفة، تدخلت في تدبير الرب.. بضربة فرشاة، مسحت الغيم بالأزرق، وخبأت جروح السماء. ورسمت قوس قزح من أجل الأطفال. لوحت للنهر بشحنة دفء، فجرى في أوصاله صبيب

ماء. شذبت أقرب شجرة إلى الشرفة، كي لا يظل حجاب بيني وبين الله. أمرتُ لقلاق الصومعة المقابلة بفرد جناحيه وبالوقوف على قدميه الاثنتين، لأن وقوفه بقدم واحدة لا يليق بعالم جميل ورائق كهذا.

نبهني صفير القطار، إلى أن سكة الحديد الممتدة وسط الغابة المقابلة لبيتي، تحتاج قطارًا قادمًا. ما معنى أن تظل كل قطاراتي، على رحيل؟

رسمتُ ابتسامة على وجوه النساء العابرات، وقلوبًا حمراء على صدور الرجال. جردت شرطي المرور من سلاحه، ليعيش العالم بسلام، لن نحتاج بعد الآن إلى أسلحة تزرع الموت والدمار.

كان مشهدًا رائعًا، افتقده العالم منذ سنوات طويلة. ابتهجت.

ابتعدت قليلًا لأتأمل المشهد، فانغلقت دوني الأبواب والنوافذ والسماء. اختفى النهر والغابة وسكة القطار. اختفيت أنا من الشرفة.

أخفقتُ. كان إخفاقًا ذريعًا، فقد غيرت المكان والأشياء، ونسيت أن أغير دواخلي لأليق بفرح وجمال مكتمل كهذا..

تدخلت المساعدة:

- إنها تكذب.

- لا أظن أنها تكذب لقد خلطت بين الواقع والمتخيل، فحاد عقلها عن الصواب.. ربما هو كلام إحدى الشخصيات الروائية.

توجّه إليّ:

- سيدتي، توقفي، هذه ليست أنتِ، أنتِ لم تكوني يومًا بهذه الشجاعة، إنها قرارات امرأة أخرى.

بحركة عصبية، سحب المقرر علبة سجائر من جيب سترته.

حدجته المساعدة بنظرة استنكار.

- إنها سجائر إلكترونية..

صحح المقرر، وانشغل بالتدخين.

انتهزت فرصة مشاحنتهما لأكتشف المزيد عن الغرفة.

على الطاولة اليمنى المجانبة للسرير، وضعت مؤلفاتي، مصفوفة بشكل أفقي، بحيث يمكنني أن أقرأ العناوين من الكعوب. لم تكن كل إصداراتي، فقط التي صدرت ما بين 2010 و2020... على الطاولة اليسرى جذاذات بألوان مختلفة، مسودات، ألبومات صور، ووثائق، الأكيد أنها تخصني..

لاحظ الرجل شرودي:

- سأحدد السؤال، هل كنت سعيدة بالعودة للحياة؟

لسبب ما، اغرورقت عيناي، ساح حزن على الصدر، من القلب انفلتت أنَّةُ ألم. لكنني كتمت حزني وكبت دمعتي، ليس من عادتي كشف جروحي للغرباء فادعيث:

- العودة تكون دائمًا سعيدة، الذهاب هو المحزن، أكيد أنني كنت سعيدة بالعودة إلى أبنائي، بيتي، عائلتي الكبيرة

وأصدقائي..

ارتفع رنين جهاز تخطيط القلب فوق رأسي..

وخزتني المساعدة بالعصا الكهربائية.

نهرني المقرر:

- لقد كذبت، الجهاز سجل ارتفاعًا في مشاعر الحزن. إذا كنت تريدين الانتهاء من هذا التقرير، عليك مساعدتنا بالتزام قول الحقيقة..

- لم أكذب، لقد التبست عليّ المشاعر، المفروض أن أكون سعيدة بالعودة، أليس كذلك؟ لا أعرف من أين جاء هذا الحزن.

- سيدتي. برهني على أنك كنت تستحقين حياة ثانية.

صرخ المقرر مهددًا بعقاب لا أعرفه. بماذا سيعاقبني إن كنت بمنطقه ميتة، هل هناك عقاب أكثر من الموت؟

- حسنًا، عدت بحماس أكبر، ورغبة قوية في الحياة. رممت الشظايا، رتقت الذكريات، غرست أصابعي العشر في الصخر واستنبتُّ الأمل على حافة الخريف. أشعلت الضوء المنطفئ في قلبي، رفعت نخب الحياة عاليًا وناديتها بشغف عاشقة: "نخبنا أيتها الحياة، ها قد عدتُ إليك فاحضنيني..".

لم أفطن، حينها، بأنني شكلت حلمًا كبيرًا بحجم المستحيل. لم أجد الحياة التي تركت ورائي، كل شيء تغير، وبسرعة غريبة. العالم أصبح أكثر شراسة وتهديدًا للإنسان ولجنس المرأة على الخصوص. وجدت عالمًا تباع فيه النساء في الأسواق.

أما عالمي الصغير فأصبح ساحة صراع بيني وبين أقرب الناس إليّ. عشت أحداثًا، سمعت كلامًا، وعرفت أسرارًا.. مصائب لم أكن أتخيل وقوعها حتى في حلم. عندها أدركت أن حياتي السابقة، التي كنت أجدها قاسية ومجحفة، كانت قابلة للعيش، وأنني أنا التي بالغت في الشكوى والتذمر وأسأت الظن في الحياة، كنت سلبية أكثر من اللازم، ورأيت الأشياء بسوداوية مرضية. وأنه كان عليّ أن أبذل مجهودًا أكبر، لتقبل اختلالات العالم، خيانات وعلّات البشر، حتى أكون ابنة مطيعة، وزوجة متغاضية، وأمّا معطاءة، ومواطنة

صالحة.. لكن بعض المتطلبات والأمنيات، عادت لتحيي رغبات قديمة وتنغص عليّ الحياة.

قد يبدو ما أحكيه، تفاصيل تافهة، لكنها كانت كافية لإيقاظ الأحلام والأوهام. صادف وأن كنت أتجول في ساحة بوتيرُّو بميديلين، رفقة كاتبة هنغارية وزوجها. حين انحنى الزوج على ركبتيه وعقد رباط الحذاء المفكوك لامرأته، تمنيت أن أكون أنا تلك المرأة. كما تمنيت تلك النظرة التي نظر بها رجل في الحافلة إلى رفيقته. تمنيت تلك الكتف التي توسدتها امرأة في طائرة ليلية تعبر المحيط. تمنيت تلك الجملة التي قالها "كلينْ سْتوڈْ" لـ "مِيريلْ سْتْريبْ" في فيلم "على طريق ماديسونْ": "دعيني أَغْتنِ بحياتك" بدل أن يقول: "أحبك".

انتبهت أنني تماديت في البوح، وأن كلامي أثار، بشكل مريب، اهتمام المساعدة، فتوقفت.

طمأنني المقرر:

- هذه ملفات سرية، لا أحد يستطيع الوصول إليها، ستظل سرية حتى ولو طلبتِ، أنتِ شخصيّا، حجب السرية عنها.

فور إغلاقنا الملف، لا أنا ولا مساعدتي سنتذكر ما بحث به، خلال هذه الساعات. حين سنغادر الغرفة سيمْحو المدير العام للمركز ذاكرتي تمامًا. إنها مسألة قدرة الاستيعاب. لا أستطيع حفظ كل الحيوات التي أقوم بتوثيقها.

مَن يكون المدير العام، الذي يتحكم في هذا المجنون؟

لم أثق بكلامه والتزمت الصمت.

جهاز اللاسلكي:

".. عن الجريدة الإلكترونية المغربية أخبار الساعة: وقفة احتجاجية لحفاري القبور، وتهديد بإضراب عام، مطالبين بتعويضات الساعات الإضافية، وتمكينهم من ألبسة واقية من العدوى، والاستفادة من صندوق الدعم لجائحة كورونا.. حوِّلْ".

بعناد لم أعهده في شخصي أصررت على الصمت، قصدت إثارة غضب الرجل، لعله في حالة الغضب، يفشي بعضًا من أسرار اللحظة.

- سيدتي لا تضْطرِّينا لاستعمال الحقنة.

وأشار إلى حقنة كبيرة فوق الطاولة المجانبة للسرير..

راودتني فرضية أخرى، أنا الآن في مختبر للتجارب على البشر، هذان الشخصان تقنيا مختبر..

لم أرتبك. بتحدٍّ أكبر، أوضحت للرجل:

- أنا لا أخاف الحُقن، سبق وأخذت ورأيت الكثير منها في حياتي، بأحجام وأشكال مختلفة. أكبر حقنة رأيتها كانت في مستشفى للولادة. حين كان طبيب التخدير يجس بأصابعه أسفل ظهري، بحثًا عن مكان مناسب لغرز الحقنة. نبهته الطبيبة المولدة بحركة من رأسها، أن عليه إخفاء الحقنة كي لا يرعبني. حينئذٍ كانت الولادة بلا ألم تقنية جديدة في عالم الطب.. كما أنني كنت، وطيلة عشر سنوات، أجلس على الأقل مرة كل شهر، على كرسي في مختبر التحليلات الطبية الموجود في نفس الشارع الذي أسكنه. أجلس دائمًا بهدوء واستسلام. مع مرور السنوات، بدأت أطمئنُّ إلى مريم، الممرضة التي التحقت بالمختبر كمنظفة. وبعد شهور أصبحت هي التي تأخذ عينات الدم من المرضى. كما أسرّ لي،

- سيدتي لا تضْطرِّينا لاستعمال الحقنة.

وأشار إلى حقنة كبيرة فوق الطاولة المجانبة للسرير..

راودتني فرضية أخرى، أنا الآن في مختبر للتجارب على البشر، هذان الشخصان تقنيا مختبر..

لم أرتبك. بتحدٍّ أكبر، أوضحت للرجل:

- أنا لا أخاف الحُقن، سبق وأخذت ورأيت الكثير منها في حياتي، بأحجام وأشكال مختلفة. أكبر حقنة رأيتها كانت في مستشفى للولادة. حين كان طبيب التخدير يجس بأصابعه أسفل ظهري، بحثًا عن مكان مناسب لغرز الحقنة. نبهته الطبيبة المولدة بحركة من رأسها، أن عليه إخفاء الحقنة كي لا يرعبني. حينئذٍ كانت الولادة بلا ألم تقنية جديدة في عالم الطب.. كما أنني كنت، وطيلة عشر سنوات، أجلس على الأقل مرة كل شهر، على كرسي في مختبر التحليلات الطبية الموجود في نفس الشارع الذي أسكنه. أجلس دائمًا بهدوء واستسلام. مع مرور السنوات، بدأت أطمئنُّ إلى مريم، الممرضة التي التحقت بالمختبر كمنظفة. وبعد شهور أصبحت هي التي تأخذ عينات الدم من المرضى. كما أسرّ لي،

بغيرة، زميلها في المختبر.

مع مريم أكاد لا أحس بوخز الإبرة. في بعض الأحيان أتسلى برؤية الدم وهو يتدفق من شرياني إلى القنينة الزجاجية. بت أعرف مقادير العينة التي يحتاجونها لكل مرض. كم يلزم لإجراء تحليل السكر في الدم، أو الكولسترول، أو معدل الكريات الحمراء.. كم يكفي لتحليل "التي بيTP " و"الإي إن إيرINR "، لقياس سيولة الدم، خمسة ميليلترات بالضبط. يمكن تزويدها إذا كان هناك شك أو ضرورة لإعادة الاختبار. آخر مرة أخبرتني مريم أنني جلست أمامها، على نفس الكرسي، 120 مرة طيلة العشر سنوات، بمعدل اختبار واحد في الشهر..

مع الوقت، لم أعد أشعر بالوخز في ذراعي اليمنى. نبهتني مريم إلى أنها ماتت، عسى أن لا نعتمد لاحقا على الذراع اليسرى وحدها.. كانت تقصد بموت الذراع، أن الجلد فقد الإحساس بالألم من كثرة الوخز. أعجبني التعبير، تمنيت أن تنطبق الحالة على القلب. ومع ذلك، فـ "لحمك زْوينْ" - تقول مريم-: "هل تعلمين أن المرضى في مثل حالتك، تزرقُّ أذرعهم وتختفي شرايينهم بعد سنة فقط. ونضطر لأخذ عينة الدم من أسفل الأذن أو القدم.." أشكر لها إطراءها وأنا أنزل

كم قميصي.

سألت مريم ذات مرة، عما يفعلونه بالدم الذي يسحبونه كل يوم من المرضى، كيف يتم تصريفه بعد الاستعمال، ومازحتها: لو كنت مكانكم لكنت بعته لمركز تحاقن الدم، وأصبحت ثرية. لا أعرف لماذا، في تلك اللحظة، توقفت مريم عن الضحك وارتبكت. لكنني في نفس الأسبوع شاهدت فيلمًا يدور في مختبر للتحليلات الطبية. كان تقنيو المختبر يسقون مشتل نباتات بدم المرضى، في عملية تجريب علمي. شككت في أمر مختبر الحي. ففي السنوات الأخيرة أصبحت الأوبئة تصنع في المختبرات، والموت أصبح معادلة علمية، سلاحًا حربيّا بين الدول.

جهاز اللاسلكي:

".. حسب شبكة فوكس نيوز، هناك احتمال تسرب عرضي لفيروس كوفيد -19 من مختبر تابع لمعهد علم الفيروسات في مدينة ووهان الصينية.. حول".

تطلعت لوجه المقرر، ملامحه ظلت ثابتة لا تتغير.

واصلت:

- أصبح وجه مريم مألوفا لديَّ أكثر من وجوه أولادي، حتى إنني فكرت مرات كثيرة أن أقتني لها هدية، لكنني كنت أنسى.

التفتُّ إلى المقرر:

- هل يهمكم أن أحكي قصة مريم، التي كانت قزمة برأس ضخم، من أسرة فقيرة تتألف من تسعة أفراد..

قاطعني:

- يهمنا، أكثر، إحساسك نحوها، مشاعرك اتجاه شخص يسحب دمك، مرة كل شهر طيلة عشر سنوات..

- لا أدري، ليست مشاعر واضحة. لكنني، ذات حلم، رأيت مريم وقد تحولت إلى بعوضة كبيرة الحجم، تمتص الدم من شرياني. ولم أكن فزعة، ولا مستغربة من المشهد. هل أنا شريرة لأحلم بسيدة طيبة، حلمًا بهذه البشاعة؟

طرقٌ على الباب، وصوتٌ ناعمٌ يستأذن الدخول.

جاء الفَرَجُ، متّيْث نفسي.

يُفتح الباب، تدخل ممرضة شابة سمراء، بمعطف أبيض قصير فوق الركبة وقبعة بيضاء. بقوام جميل، تشبه كثيرًا عارضة الأزياء الجامايكية ناعومي كامبل. كأنهما توأم. ابتسامة دلع زادتها جمالًا، بدا تأثيره واضحًا على المقرر، فانفرجت أساريره.

دخول الممرضة أضفى على الغرفة جوّا مرحًا ودافئًا.

حيَّت بحركة من رأسها. تقدمت مني، ربطت طوقًا مطاطيّا حول ذراعي، فركت الوريد الناتئ بقطعة قطن مبللة. سحبت عينات من الدم وزعتها على ثلاث قنينات.

انتهزت فرصة اقترابها مني، وشوشت في أذنها: "أنقذيني، أنا محتجزة"..

لم تُبال الممرضة، أو لم تسمع صوتي المحبوس في حلقي، بل سألت بتلقائية وهي تجمع القنينات في حامل بلاستيكي:

- هل هي المرة الأولى؟

- لا، إنه موتها الثاني.

أجاب المقرر وهو ينظر إلى صدرها النافر من خلال فتحة المعطف.

غادرت.

لحظة خروجها انفرج الباب، من خلال الشق، لم أر شيئا، كان الظلام.

3

إدراكي مشوَّش، حواسّي كذلك. إحساس بأن حضوري ليس كاملًا. جزء مني هنا، وجزء في مكان آخر. مستلقية على ظهري هنا، أتبادل حديثًا جنونيّا مع غريبين وجالسة أمام كمبيوتر، أكتب هناك. أكتب ما يحدث في هذه الغرفة. خائفة هنا، وأتسلى ببناء قصة هناك..

وعيي مشطور.. ربما هذا ما أضعفني وأفقدني قدرتي على الحركة وليست الحبال الضوئية..

فكَّرتُ، لو عرفت هذين الشخصين اللذين يحتجزانني، لكنت عرفت ما يحدث لي ولماذا؟ وكيف؟ وأين؟ ومتى؟..

مع ذلك هما وجهان مألوفان.. هل عرفتهما من قبل؟

سيطر عليّ إحساس قوي بقرابة ما، تربطني بهما، خاصة بالمقرر. قرابة دم؟ قرابة إبداع؟

بما أنني أعتقد، بشدة، أن بعض الشخصيات التي تخلقها

المخيلة، ليست بعيدة تمامًا عن التحقق في الواقع، قد تصبح لها روح وجسد بعينين ورجلين.. إلى درجة أنني أحكم دائمًا إغلاق باب غرفة الكتابة حتى لا تغادرها الشخصيات وتحدث الفوضى في البيت وفي العائلة. لهذا لا أستبعد أن يكون المراقب والمساعدة شخصيتين روائيتين غاضبتين مني، غير راضيتين عن كيفية تقديمهما للقارئ، وأن كل ما يحدث الآن هو مجرد تصفية حساب أدبي بين كاتبة وشخصياتها..

قد تكون المساعدة هي شخصية زنوبة، مديرة الماخور في رواية "اللّواتي". لقد قسوت عليها كثيرًا بتحميلها انتهازية ومجون المجتمع.. وقد يكون المقرر هو الطبيب المجنون "بْيير بِزْديغو"، الشخصية الرئيسية لنفس الرواية. لكنهما، كشخصيتين لم تكونا على وفاق طوال الرواية، ومن المستبعد أن يجتمعا هنا على فكرة واحدة..

ربما المقرر هو "بْيير بِزْديغو" مصور الحرب الإسباني في رواية "منسيات الحروب" أو "بْيير بِزْديغو" الشخصية، المتعددة في "العدم عميقا". فشخصية "بْيير بِزْديغو" بالضبط، ظلت غامضة وملتبسة، كشخصية مكررة لم ينتبه إليها النقاد. طاردتها أو طاردتني عشر سنوات، مسافة أربعة

أعمال سردية. حتى إنني في الرواية القادمة " دُونْ خْوانْ كما عرفتُه" سأتوصل برسالة احتجاج غاضبة من هذه الشخصية. "فبيير بِزْديغو"، حسب رسالته، لم يكن يومًا كما كتبته مجنونًا ولا جاسوسًا، ولا بدينًا مشوهًا. وركز على صفة البدانة، فقد آلمه كرجل هذا الوصف القاسي من كاتبة امرأة. في آخر الرسالة سيدعوني للقائه في منتجع طبي جنوب إيطاليا لنكتب معًا حياته الحقيقية.

وحده "بْيير بِزْديغو" - دون باقي الشخصيات- من واكب وعاش كل أزمنتي الروائية وجال في كل عوالمها." بيير" يعرف خبايا وأسرار مطبخ الكتابة. يعرف عني الكثير.. حتى سرّي الكبير، كما المقرر.

راجعت ذاكرتي، وجدتها فرضية لاغية. ففي كل ما كتبت، لم يكن "بْيير بِزْديغو"، ولا مرةً، شخصية عسكرية.

رغم ذلك، فإحساس القرابة شجعني على السؤال المحرم:

- هل تسمح لي بسؤال ملح، هو في سياق التقرير، أرجو أن لا يحذفه قسم البرمجة.

- تفضلي.

أذن لي المقرر تحت نظرة غاضبة للمساعدة.

- من أنتَ؟ أقصد من أنتَ حين لا تكون مقررًا في المركز؟

- أنا مَن أنا ومَن تريئَني. كل وافد يراني بشكل مختلف، حسب شفافية روحه. وهناك مَن لا يراني، فقط يسمع صوتي.

مكبر الصوت:

"المركز توقف مؤقتا عن استقبال الحالات العادية، تأجيلها في صالح الجميع. الأولية لضحايا الوباء.. ".

ليس هناك توافقٌ زمنيٌّ بين ما يقع في الغرفة، وما يصل من الخارج عبر مكبر الصوت وجهاز اللاسلكي. أتساءل إن كنت حقا أسمع ذلك.

غموض لا يحتمل.

الغرفة تصبح أكثر برودة. جسدي يبرد، أرتعش.

لفحة البرد نبهتني إلى أنني عارية تمامًا، لا ثياب تحت الملاءة البيضاء. خجلت من عُريي. غضبت، كيف تجرأ هذان المعتوهان على اقتحام خصوصيتي.. من قام بتجريدي من ثيابي، هل هو المقرر أم المساعدة؟ إن كان المقرر، فكيف نظر إلى جسدي؟ هل كان جانبه الذكوري حاضرًا وهو ينزع عني ثيابي؟ هل تعامل مع جسدي العاري بمهنية؟ إنه اعتداء يستوجب المحاكمة. سأقدم شكوى لمنظمة حقوق الإنسان وللجمعيات النسائية، سأعلنها حملة ضد انتهاك الخصوصية والحياة الفردية، سأدعو النساء للتظاهر أمام البرلمان.. الكثير من النساء..

انفعلت من الغضب، تصبب العرق من جبيني.

سخرت من نفسي، إنه رجل عسكري، البذلة العسكرية فوق القوانين والمحاكمات.

مكبر الصوت:

"لحصر انتشار العدوى، نرجو من المقررين عدم التجول

بين الأجنحة، إلا للضرورة القصوى".

رأسي يكاد ينفجر من الأسئلة، رأسي الذي لا أستطيع لمسه..

يتواصل الاستجواب مرة بالترغيب ومرّات بالترهيب المخيف، حتى وصلت لحظة ضعف بغيضة، بدأت أتوسل إليهما، أستحلفهما، وأدعو لهما ولأولادهما وأمهاتهما.. ذل أخجل أن أحكي تفاصيله..

لحظة انهيار الإنسان أمام خوف نابع من ذاته.

إذا كان الخوف نابعًا من ذاتي، فالرجل والمرأة من اختراع عقلي.. هل هو التوهم يلعب معي لعبته المعتادة.. فأنا أعاني منذ سنوات الصبا من تضخم الوهم، أتوهم أشياءَ، أحداثًا، مشاعرَ.. هل تحول التوهم إلى انفصام، وأنا الآن أتخيل رجلًا وامرأة في غرفة بيضاء..

فلأنصرف عنهما كأنهما غير موجودين، أتجاهلهما وأتجاهل أسئلتهما فيختفيان..

شعرتُ بطاقة سلبية، قادمة من ناحية المساعدة. رغم أنني لم أر بوضوح تعابير وجهها، فقد أحسست منذ الوهلة الأولى، بأنها تضمر لي عدوانية أجهل أسبابها. حتى إنني كدت أسألها باستنكار: "لماذا تكرهينني، هل تعرفينني؟" قد تكون إحدى غريماتي، منافساتي على امتيازات لم أحظ بها في الحياة. عرفت كثيرات مثلها، تعرضن للاضطهاد وعنف أسري، مجتمعي، سياسي، ديني، لم يملكن وسائل لتصريف الغضب والبغض الذي تربى في دواخلهن، فتحولن لقاطعات طريق!

من الحقائق التي أدركتها وأنا أخطو نحو الستين، أننا معشر النساء، نحمل نفس الألم، ومع ذلك فكثيرات يُحملن مسؤولية هذا الألم لبنات جنسهن. إنه خطأ في توجيه إصبع الاتهام، لم أجد له تفسيرًا مقنعًا.

طيلة الاستجواب لم تنظر إليّ المساعدة وجهًا لوجه، تنحني على الكومبيوتر بجدية وحماس، تتحمس أكثر لما أعترف به من خطايا. تحذف أو تضيف. لا تلتفت إليّ إلا لتؤكد على اعتراف صدر عني في لحظة ضعف وانفلات مشاعر، فتسطر بالأحمر على جمل معينة..

سأدرك فيما بعد، أن عدوانية المساعدة لم تكن تخصني،

إنما هي موجهة لجنسي كامرأة.

أعادني المراقب إلى الواقع، واقعهُ.

توالت الأسئلة. أسئلة كثيرة مع محاولة جري إلى بوح واعترافات، بأحداث ومشاعر كنت أخفيها حتى عن نفسي.

ترى أين ستذهب هذه المعلومات التي يصر الرجل على معرفتها، بل تأكيدها لأنه، في لحظة ما، بدا الرجل كإله صغير عالم بكل شيء.. لأي غرض يجمعونها كما تجمع معلومات منخرطي الفايسبوك والتويتر.. هل لأغراض تجسسية؟

لولا البذل العسكرية للرجل والمرأة، فالغرفة البيضاء، السرير الأبيض، الحقن، التحاليل، ترجح فرضية أن الأمر يتعلق بجمع معلومات تستعمل في إحصاءات طبية لشركات تصنيع الأدوية أو للبحث العلمي.. ربما يرغبون في معرفة كم مرة مت، كم مرة فقدت الوعي، كم لترًا من الدم سحبت مني مريم خلال العشر سنوات الأخيرة، هل واظبت على نفس المختبر، كم علبة دواء استهلك سنويّا، هل غيرت الدواء، كم مرة فكرت في الانتحار، كم مرة قاومت الرغبة في الاستغناء عن حبوب السانتروم، لأترك الجسد يمضي في سبيله؟..

أذكر، أن طبيبي المعالج في المشفى الجامعي "سال بيترييير" بباريس، كان يأخذ مني عينات كبيرة من الدم في كل معاينة، بل جعلني أوقع على إذن صريح باستعمال دمي في البحث العلمي. لأن مرضي نادر يخص اختلالًا في خلية الدم.

طبيبي المعالج كان يهودي الديانة. أثناء إقامتي الأولى بالمشفى، أكدت أن يكون طعامي خاليًا من الكحول ولحم الخنزير، لأن ذلك يتعارض وديانتي. فأخبرني أنه، هو كذلك، كثيرًا ما يتشاجر مع طباخ المشفى الذي ينسى ويقدم له طعامًا بمشتقات لحم الخنزير.. مازحني: "أترين، نحن نخلق مشاكل أينما حللنا، نحن أبناء عم، نتفق في الكثير من المحرمات والمحللات، ومع ذلك نحن أكثر اختلافًا وعداءً، والأكثر إثارة للمشاكل في العالم". كان طبيبًا متمكنًا ولطيفًا ومع ذلك ظلت الريبة قائمة بيننا.

جهاز اللاسلكي:

".. وزير خارجية إيران يعلن: آلاف الإصابات بفيروس كورونا والوفيات بالمئات يوميّا.. سنفقد السيطرة على الوباء إن لم ترفع العقوبات الاقتصادية.."

لا ارتداد للخبر على ملامح المقرر.

عقلي لا يتوقف عن بناء افتراضات ثم تفكيكها بمعطيات سابقة أو حيثيات آنية.

ما الذي حدث وقلب عالمي رأسًا على عقب؟

أنا نائمة في بيتي، وهذا حلم؟

إنها بداية فصل الربيع، و"المشمش يحلم في الحقول" كما تقول جدتي، كلما طلبت تفسيرًا لحلم. "إنها أضغاث أحلام، حين تحلم الأشجار بالثمار التي ستطرحها في الصيف، يحلم الإنسان كثيرًا". جدتي لم تكن امرأة متعلمة لكنها تعرف أن الإنسان جزء من الطبيعة.

كابوس؟ إن كان هذا كابوسًا فهو أطول كابوس عشته وعليّ أن أستيقظ. أو أصرخ لعل أحدا من البيت يسمع صراخي، ويوقظني من النوم. لكنني أنام في غرفة مستقلة، لا أمل في نجدة مَن هم في اليقظة..

هل سيكون هناك صباح آخر، أستيقظ في سريري، أفتح الشرفة وأطل على العالم، ألقي التحية على النهر، أرافق وحدتي إلى المطبخ، نشرب كأس القهوة معًا، ندردش قليلًا، حول أحلام الليلة السابقة قبل أن نبدأ المهام اليومية..

سأفتح عينيَّ لأستيقظ وينتهي كل شيء، يختفي المشهد.

لكن جفنيَّ ثقيلان وهوة النوم عميقة..

حلمت بالكرة الأرضية تدور حول نفسها بسرعة كبيرة، تجعل الليل والنهار يتواليان في أقل من ستين دقيقة. رأيتني وسط حشد كبير من الناس، يسيرون نحو بوابة كبيرة لنفق، يمشون ساعة وينامون ساعة.

النفق ليس أفقيًا، ولا نازلًا إلى الأسفل، بل صاعدًا في شكل لولبي من سطح الأرض نحو السماء.

رجال ونساء وأطفال بالآلاف، عراة حفاة يمشون في صمت جنائزي وصفوف متقابلة، بانتظام يسهر عليه مراقبون بزي عسكري، يشبهون تمامًا مقرر الغرفة، كما لو أنهم استنساخ له.

صوت كالرعد يخطب في الحشد: "أيها الناس، تقدموا ولا تخافوا.. النفق ليس نهاية، إننا نقودكم نحو بداية جديدة.. فاثبتوا على إيمانكم".

عند بوابة النفق يخضع الناس لتفتيش دقيق، منهم من يدخل ويشفطه ضوء ساطع في آخر النفق، ومنهم مَن يُطلب منه الانتظار، وآخرون يعودون أدراجهم.

كنت أمشي مع الآخرين وأنا أفكر في مصيري، إلى أن وصلت أمام بوابة النفق.. عندها ظهر رجل الغرفة "المقرر"، وشوش في أذن حارس البوابة الكبيرة وسلمه ملفي.. توجست شرّا، فهربت من حلمي الأول إلى حلم آخر..

وخزة العصا الكهربائية توقظني من النوم..

4

مكبر الصوت يوقف الموسيقى العسكرية ويعلن:

"إعلان لأصحاب الأمراض المزمنة: الرجاء البقاء في بيوتكم.. تشبثوا بالحياة. للضرورة القصوى يمكنكم الاتصال بالرقم 141 ألو اليقظة الوبائية أو مراسلة خلية الأزمة على العنوان الإلكتروني التالي: coronavirus-covid19@gmail.com "

كيف يجمع عقل بشري بين أربعة مصادر لمعرفة الحقيقة؟ أربعة مصادر متنافرة ومتباعدة في الزمن وفي المكان وخارج المنطق. هل أصدق مكبر الصوت؟ جهاز اللاسلكي؟ هل أصدق الشخصين الغريبين، أم أصدق نفسي؟

انطلاقًا من قياسي الزمني فقد مضت قرابة ثلاث ساعات، وأنا أراوغ، أختبئ خلف جمل استعارية مبهمة، وشاعرية مفرطة. أحكي حياة ليست لي، بل أجزاء مجمَّعة من حيوات نساء أخريات. جزء من خيبة امرأة مناضلة، وجزء من ألم مغْتصبة حرب، وآخر من يوميات كاتبة ميتة، وجزء كبير من

هلوسات امرأة مجنونة.

ثلاث ساعات وأنا أحكي فرحهن، حزنهن، وأبرر خطاياهن، تحت ضغط الخوف الراهن، وعجز مزمن عن التمييز بين الواقع والمتخيل، مشكلتي في الحياة والكتابة..

المساعدة منكبة على التدوين، لا تنظر نحوي. المقرر وحده من يطرح أسئلة يعرف أجوبتها مسبقًا، لأنه يعلم الكثير عني كحالة، هو فقط يختبر صدقي.. من الصعب خداع المساعدة رغم قدراتها المعرفية المتواضعة، عكس المقرر الذي يبدو ضعيف الذكاء ويتكلم بشكل آلي كأنه مبرمج. تتبعت مخارج الحروف وحركة شفتيه لأتأكد من أنه ليس إنسانًا آليّا. بين الفينة والأخرى، حين تتسلل إليه فيروسات بشرية، يحيد عن البرنامج بإفلات بعض المشاعر.

المهم، أن أبذل مجهودًا أكثر كي لا أسقط في زمنهما ومنطقهما. هذان المخلوقان، لن يتركاني أذهب إلى حال سبيلي، حتى أقول الحقيقة أو ما يشبه الحقيقة.

على مضض، تظاهرت أنني الشخص المقصود، فأنا تحت رحمة مجنونين، قد يستفزهما عنادي ويقتلاني فعلًا، فقط

ليبرهنا بالملموس على موتي. كما أن معرفتهما بأنني لست المقصودة لن يكون في صالحي، سأكون حالة غير مهمة، وسيتخلصون مني كشاهدة على ما يحدث في الغرفة وفي المركز. أسرعت بإخبارهما باسمي كصاحبة الجثة، لكنني لا أذكر اسمي.. ما اسمي؟

اللعنة على هذه الذاكرة المعطوبة.

التفت إلى المقرر محتجة:

- أما كان عليكم، استبدال ذاكرتي أثناء زيارتي الأولى؟ إن كانت هناك حقًا زيارة أولى. ألم تلاحظوا أن ذاكرتي الخربة لا تصلح لحياة ثانية؟

- المركز ليست لديه الصلاحية لاستبدال أي عضو من أعضاء جثة. يجب أن نسلم الجثة كما وصلتنا.

جهاز اللاسلكي:

".. آلاف الوفيات في إيطاليا.. مقابر لامباردي لم تعد تستوعب المزيد من الجثث.. الجيش يتكفل بحرق الجثث.

حوِّلْ".

قد أتفهم لامبالاة المساعدة بما يصدره اللاسلكي، لكن لا أتفهم لامبالاة المقرر كرجل عسكري. احتمال كبير أن يكون مجرد مختل يرتدي بذلة عسكرية.

يعود إلى نفس الأسئلة مطالبًا بالبراهين والأدلة، والحقيقة..

- حسنًا، قلت بتأفف، تريدون حقًا ما حدث في السنوات العشر الأخيرة، المضافة إلى عمري، كما تدعيان. سأقول الحقيقة، لكن عليّ تنبيهكما أن حقيقتي ليست حقيقتكما. من البَدَهيّ أن الحقيقة تختلف من شخص لآخر، ما أراه أنا حقيقة قد يبدو لكما أنتما كذبًا، إنه اختلاف في زاوية النظر.

قاطعني المقرر:

- إلا المكشاف، الجهاز الذي فوق رأسك، إنه مبرمج على حقيقة واحدة ثابتة، هي التي نعتمدها في إصدار الأحكام وقياس الصدق والكذب، فاحذري.

لم أُولِه اهتمامًا وتابعت:

- الحقيقة كما اعتقدتها ووعيتها تختلف كثيرًا عن الحقيقة بمنظوركم، لأن زمنكم لا يقاس بزمني. أنت ترى أننا في الليل وأنا أرى ضوء النهار من النافذة. حتى المكان، قد يبدو لكم غرفة بأربعة جدران ونوافذ مربعة، أنا أراها غرفة مثلثة الأضلاع ونافذتها كذلك. قد يراه آخر نفقًا لا نهاية له، وآخر سيراه نفقًا له نهاية..

انتبهت إلى أن صبر الرجل بدأ ينفدُ، فاستدركت وصرحت:

- سأبدأ بكبرى الحقائق وهي أنني لم أحيا، كنت فقط مشتلًا لحيوات آخرين..

- من فضلك، بلا استعارات. كما أن هذه الجملة وردت في تقريرك الأول قبل 2010. نريد حقائق أخرى، خلاصة عشر سنوات، ليست صعبة. هي فترة زمنية قصيرة، عمر قصير.

ترددت :

- .. كبرى الحقائق، أنني كشفت سر الأسرار. لم يكن سرّا،

كان جليّا، أنا التي كنت عمياء. كما لو أن عودتي كانت فقط من أجل معرفة هذا السر. صدمت، فتمنيت لو أنني ما عدت من النفق.. صدقني أنا لا أكذب، أخضِعني لكشف التعاسة، لتتأكد. السر هو سبب تعاستي.

- ربما، لكن هذه حقيقة غامضة، هاتي حقائق أخرى.

من لمعة في عينيه الزرقاوين، أدركت أنه يعرف سري الكبير. حول نظره بيني وبين المساعدة كما لو أنه يقول لي: "أقنعي المساعدة، أما أنا فأعرف كل شيء".

فجأة، انطفأت الأضواء، توقف جهاز التخطيط، ومكبر الصوت. وساد الظلام لدقائق. في تلك الدقائق الوجيزة بدت الجدران شفافة من البلاستيك أو من الزجاج. ظهر ممر طويل، وغرف كثيرة، بابان أو ثلاثة بطلاء أحمر. وخيالات بيضاء تجول بالممر. رأيت بوضوح ما بداخل الغرفة المقابلة، كانت تشبه غرفتي تمامًا، غرفة بيضاء، جثة على سرير ورجل وامرأة وجهاز تخطيط.

كما لو أن خيطًا تواصليّا انقطع بيني وبين عالم الغرفة، انقطع التخاطر بيني وبين المقرر.

عاد الضوء.

بسرعة، تعيد المساعدة تشغيل الكومبيوتر الذي توقف بانقطاع الكهرباء. تبحث في ملفات الأرشيف. بارتباك ظاهر، تحول الفأرة يمينًا ويسارًا صعودًا وهبوطًا، في الأخير تضغط على ملف. ثم باستغراب تخبر المقرر:

- إنه تقرير رجل !!

يتفحص المقرر الشاشة. يشير بأصبعه إلى تاريخ الملف غاضبًا:

- لقد أخطأت في كتابة التاريخ، كتبت عشرين بدل ألفين وعشرين، إنها حالة تعود إلى سنة عشرين ميلادية.. إنه الخطأ الثالث هذا اليوم أرجو أن لا يتكرر هذا.

ثم بصوت هادئ:

- ما الأمر؟ وجهك محتقن، هل أنت محمومة؟ هل أصبت بعدوى الوباء؟

صوت المكبر:

".. تنبيه، لا تسلموا باليد، لا تقتربوا من بعضكم، ضعوا مسافة متر بينكم وبين الجثث.." .

حركت المساعدة رأسها نافية:

- أعتذر سيدي، إنه ضغط العمل، ها أنت ترى، الوافدون لا يتوقفون، ليل نهار.

رغم اعتذارها:

- أنصحكِ أن تراجعي طبيب الأمراض النفسية للمركز، لقد لاحظت أن هذه الجثة أربكتك وأفقدتك توازنك.

- حاضر سيدي، سأفعل ذلك فترة استراحتي.

- إنه توقف المولدات الكهربائية. بسبب ضغط الاستهلاك في المركز، كل الغرف مضاءة، والآلات كلها مشغلة..

وضَّح المقرر، ونظر نحوي لأستمر في الحكي.

- .. ماذا حدث في السنوات العشر الأخيرة؟ لم أعِ درس الموت جيدًا، داومت على غباوة الشعراء، تشبثهم بالحلم والأمل. بحثًا عن ذلك الأمل، سحت في بلدان كثيرة، توسدت عشبًا بدا كأنه أخضر، مددت يدي لأياد كانت تبدو صديقة، خاطبت بقلبي الساذج قلوبًا بدت قلوبًا مُحِبة. لم أرحم قلبي رغم المرض، صعدت به مرتفعات، أنزلته إلى هاويات.

.. انهد الجسد وخطت التجاعيد أهم وصايا الخريف. وأنا ما زلت أبحث عن غصن ـ ولو كان يابسًا ـ يسند كهولتي. عن مكان آمن للموت. أقلب الوجوه بحثًا عن أمل انتظرته عمرا وما وفتّ به الحياة.

الأمل الساذج يقابله الوهم، وأنا لم أتقن شيئًا، في سنواتي الستين، غير تجميع الأوهام في سلة الوقت: وهم الحب، وهم الصداقة، وهم الوفاء، وهم الإخلاص، وهم النضال، وهم الكتابة.. الكتابة كذلك وهم كبير، حين يتوهم الكاتب أن كتاباته ستغير العالم..

مكبر الصوت:

".. ستتعاملون، لأول مرة، مع حالات إماتة جديدة، ضحايا

"المعالجة الرحيمة" و"التجارب السريرية".. للمزيد من الشرح يجب على المقررين مطالعة قاموس المصطلحات الجديدة..".

- سقت كل المبررات، لأصدق أوهامي وأكذب الواقع. في كل مرة، توهمني الكلمات والقليل من الإشارات فيهلل قلبي. وككل مرة أصطدم بالمرآة، مرآة روحي الواهمة. وأعود بروائح الخيبة على فساتين الحرير. تمنيت أن تنطفئ جذوة القلب، أن يموت في دواخلي الحنين. أن أعرف السكينة يومًا ما.

لم أدرك أن ضياع الربيع لن يعوضه شفق الخريف، وأن ما عشته لم يكن تفاؤلًا بل فائض وهم.

- خفّفي من شاعرية الكلام، لنفهم أكثر؟

أمرتني المساعدة، دون أن تنظر إليّ، كأنها لا تقصدني.

- لا أستطيع، إنها لغتي اليومية.

تابعتُ:

- أصبحت حياتي طريقًا لا تؤدي إلى مكان. طريق على جانبيه الكثير من محطات الخيبة.. تعددت خيباتي، رغم أنني ما كنت يوما ملحاحة ولا كنت متطلبة. لم أطلب من الحياة غير رقعة آمنة وزرقة أفرد فيها جناحي بحرية.. كان عليّ أن أستكين لقدري، كما تستكين بجعة مكلومة لجرحها، أن أضع الرحال عن كتفي، أن أعي أن للزمن حقّا عليّ وأن أحترم خريفي.

استدرت نحو المقرر:

- هل أستطيع أن أستعير كلام إحدى شخصياتي الروائية؟

- ممكن جدّا، نقبل ذلك، ففي النهاية شخصياتك كانت مجرد قناع لك..

- ".. يبدو أننا، كنساء، لا ننتبه لترسبات الزمن. حين نكتسب حكمة الحياة نكون قد شخنا وصدئت الأحلام".

شيء لزج ينزل من أنفي.

يتفحصني المقرر. يأمر المساعدة أن تدون ملاحظة:

- خط من الدم يخرج من الأنف. الجثة ليست بصحة جيدة.

أوضحث الأمر:

- لا تقلق، شيء عادي، أنزف كثيرًا من أنفي، من الفتحة اليمنى بالضبط. منذ عشر سنوات، فتح طبيبي الفرنسي شريانا في أنفي، كمخرج احتياطي في حالة ارتفاع سيولة الدم. " الآمن- يقول الطبيب- أن يخرج الدم من الأنف بدل انفجار شريان في الرأس. في المرض كما في الحرب، نضطر لاختيار أقل الخطرين".

- لنعد إلى سياق الكلام، كنت تتحدثين عن مرض التوهم.

- بحكم السن، بدأت أتعافى من الوهم، لم أتعافَ كليّا، غير أنني أصبحت أتحكم فيه إلى حد ما.. لكن امرأة مثلي، قليلة المناعة الجسدية والنفسية، لا بد أن تصاب بمرض آخر. فقد كانت تلك الأوهام محفزات للاستمرار، عنصر من عناصر تكوين حياتي. حين افتقدت مرارتها العذبة حزنت، تسللث إلى دواخلي وانطويت على نفسي.

مكبر الصوت:

".. استعدوا لاستقبال المزيد من الوافدين، الوباء وصل الذروة في إيطاليا.." .

انعزلتُ عن الناس..

قد تكون العزلة طريقًا لتطهير الذات وصفاء السريرة، لكنها تصبح داءً عضالًا، من علاماته أن يشعر المرء بالعزلة وسط الأقرباء والأحبة. العزلة تسببت في مرض آخر، هو مرض الوحدة، كتسلسل طبيعي لأمراض تطور نفسها مثل الفيروسات. وحدة حمقاء مستبدة، قسمت ليلي إلى فقرات من السهاد.. التصقت بي كما تلتصق العلقة بالجلد. مع أنني كنت كثيرة التنقل والسفر. تلاحقني أينما ذهبت لتبكيني في أجمل الأماكن، أمام أجمل الشواطئ. وسط أجمل الحدائق في شوارع المدن الفاتنة.. تنغص عليّ لحظاتي حيث ينهل الناس من متع الحياة. حاولت أن أفلتها في مكان بعيد، لكنها كانت تطاردنني من بلد إلى آخر. لا حدود منعتها من العبور إليّ، وتدمير سعادتي.

تلبسني الشعور بالوحدة، وأنا أنحدر نحو كهولتي

وهشاشتي تزداد يومًا بعد يوم. وحاجتي إلى شعاع ضوء، يعيد الحياة.. تحولت الوحدة، في أقصى درجاتها، إلى اكتئاب. أدركت لماذا ينتحر الفنانون والمشاهير في أسِرَّتهم الباردة، أو في مغاطس الحمامات، أو في غرف الفنادق الفخمة.. حين تتحول الوحدة إلى برد أزرق ينخر الجسد. المعجبون والمحيطون والخدم لا يستطيعون ملء فراغ شخص واحد. هذا الشخص الغائب الحاضر غير المتحقق في الواقع، يبقى الخيط الذي يربطنا بالحياة، وبدونه نسارع إلى الفرار عبر نافذة النجدة، يسميها قاموس المجتمع انتحارًا!

قاطعني المقرر:

- كم مرة حاولت الانتحار، ورد الهبة الإلهية؟

- لم أحاول، فكرت فيه فقط.

تصاعد رنين جهاز التخطيط.

توقفت عن الحديث، غفوت.

تقدم المقرر نحوي وفي يده حقنة، جفلت فنهرني:

- اثبتي، إن تحركت سأجرحك، لا تخافي، هي بعض المنشطات، ستساعدك على التذكر أكثر.

أخذ رسغي الأيمن وفركه جيدًا بقطعة قطن مبللة، ثبت خرطومًا وريديًا، وباحترافية كبيرة، دفع السائل قليلًا كي يخرج الهواء ثم أفرغ الحقنة. بحكم إقاماتي المتكررة في المشافي أعرف أن تثبيت خرطوم وريدي في رسغ المريض يعني أن حقنًا أخرى في الطريق..

مكبر الصوت:

".. نأسف لعدم تمكن حالات الموت الوبائي، من توديع أقربائهم، وإقامة جنازات لائقة. لجبر الخواطر، المركز فَعَّل قانونًا استثنائيّا لم يُعمل به منذ جائحة الحمى الإسبانية، وهو تمكين هذه الحالات من بعث رسالة إلى قريب حين نهاية التقرير" .

بدأت أفقد صبري. أريد أن ينتهي كل هذا، مهما كانت النهاية، حتى ولو كانت موتًا، الرعب أن لا تكون هناك نهاية.

أنا على حافة الجنون.

الحقن، رائحة اليود والكحول.. هل أنا في مستشفى للأمراض العقلية؟ وهذان طبيبان يعتقدان أنني فقدت ذاكرتي، ويحاولان إعادة جزء منها؟ فضاء الغرفة قريب من غرف المستشفيات. لو كان هذا مشفى، فكيف دخلت دون ملْءِ استمارة، وتقديم شيك، برصيد معين، كضمانة ؟ لا أذكر أنني فعلت ذلك في وقت سابق..

أنا معتادة على المستشفيات، الغرف البيضاء تحسسني بالطمأنينة، وأنا هنا قلقة وخائفة.

غمغمت:

- أريد أن أنام، لا أريد أن أتذكر.

هدأ المقرر من روعي:

- ستنامين نومة طويلة، كأنها الأبد، ما عليك إلا أن تسرعي في التذكر.

التفتَ إلى المساعدة، تبادلا نظرة متواطئة. أعادتني إلى

اللاطمأنينة والتساؤل عن مدى الأذى الذي سيلحقانه بي.

فكرت مرة أخرى في الهروب.

بدأ عقلي يشتغل بسرعة.

عليّ أن أهرب قبل أن يشل المخدر حركتي، لم أصدق أن المحلول الذي حقنني به الرجل هو مجرد منشط.

لابد من خطة مدروسة للهروب، بتفاصيلها الصغيرة والكبيرة.

نظرت نحو النافذة الوحيدة، كانت عالية، حجمها وشكلها المثلث يجعلها منفذا صعبًا للخروج. خلف الزجاج، ما تزال أرجل المارة تعبر وتلقي بظلالها على جدران الغرفة، أقدام تمضي في الاتجاهين.. بدلًا من التركيز في خطة الهروب تحول تفكيري إلى تأمل أنواع الأحذية التي كانت كلها مثلثة بزاوية حادة من الأمام، والفرز بين سيقان الرجال والنساء من شكل السروال، ومن السيقان العارية.. لا أرى الأجساد..

مكبر الصوت:

".. نرجو من المراقبين المتقاعدين العودة إلى المركز، نحن في حاجة للمساعدة..".

تثاقل جفناي، خدر لذيذ يصعد إلى رأسي.

دون أن أُسأل، انسابت الذكريات. يبدو أن الحقنة فعلت مفعولها.

- .. إننا لا نعود كاملين من النفق، جزء منا يظل عالقًا هناك. فبعد شهور فقط على مغادرتي للنفق افتقدته، بدأ الحنين إلى جزئي الآخر الذي تركته هناك، حيث الدفء المضيء..

فكرت في العودة، فكل أسبابها كانت قائمة، أهمها اليأس من الحياة. كل شيء أصبح أسود، كل الأبواب أغلقت، لم تبق كوة أتنفس من خلالها.. أصبحت امرأة ضائعة، أقف عند مفترق طريق، لا أعرف هل أنعطف وأختار نفسي وحريتي؟ أو أظل على نفس الطريق، إلى أن يتدخل القدر ليكتب نهايته؟

حيرة مُفترق الطريق مدمِّرة أكثر من اليقين.

خارج ذاتي، كان العالم يمشي نحو هاويته. لم يعد ذلك الصراع الأزلي الذي عرفناه بين الخير والشر، احتل الشر وحده ساحة المعارك. تسلم قيادة الكرة الأرضية حكام مجانين، يزرعون الكراهية في حدائق الإنسانية. حولوا العالم إلى غابة وحوش، حق الحياة للأقوى ولمن يملك أسلحة أخطر. يقامرون بالطبيعة على مَن سيدمر ويقتل أكثر. فبادلتهم الطبيعة بعقاب أشد، بالحرائق والزلازل والفيضانات والأوبئة. عقاب الطبيعة كان له ما يبرره: حروب وجشع وصناعة الموت. خطايا كافية ليُطرد الإنسان من الأرض، كما طُرد من الجنة، حين حاول التمرد على قوانينها!

أصبحنا ننام دون يقين بأننا حين سنستيقظ في الصباح سنجد العالم ما زال قائمًا!

ابتأست لولادة أحفاد لن يشربوا ماءً صافيّا كما شربت وأنا صغيرة، لن يروا زرقة السماء التي رأيت، لن يلعبوا بين خضرة الأشجار ألوان الأزهار كما لعبت..

من قبل، أعني قبل النفق، كان غضبي هادئًا، كتومًا، سِريّا يخصني وحدي، لكنه تحول إلى غضب صاخب.. وصراخ يعلو ليسمعه العالم.

زيارة واحدة للنفق ويصبح خيارًا قائمًا.

الرغبة في العودة ظلت تلح عليّ كلما اشتد عليّ الخناق. كل ليلة، وقبل أن أنام، أدعو بأن تُفلتني الحياة، وتعفيني من خطيئة الانتحار.

هكذا بدأت أفكر في طريق للعودة إلى النفق، الضفة المطلة على النور. وضعت كل السيناريوهات الممكنة. منها أن أتناول علبة كاملة من أقراص السانتروم، لكنه موت غير مضمون. قد تنفجر شرايين المخ وأصاب فقط بالشلل، وأبقى عالة على أمي العجوز.. فكرت في أن أرمي نفسي من الطابق الخامس، وهو علوٌّ كاف للموت، لكنني لم أجد الشجاعة، كما أن منظر جثتي مشوهة لم يعجبني. الموت أيضًا يحب الجمال. وأنا أريد موتًا أنيقًا، رومانسيّا كما في الأفلام.. والحقيقة وراء كل هذا التردد أنني كنت جبانة.

- هل كان هناك ميول انتحارية وحالات اكتئاب لدى نساء العائلة؟

- بالعكس جداتي، عماتي وخالاتي، كن محبات للحياة، ينسجن الفرح كما ينسجن ألحفة الصوف الملونة. مغرمات

بالرقص والغناء. لا أظن أنها جينات وراثية، ولو أن والدتي كانت تبكي ليلًا بعد طلاقها. لكنها كانت تستقبل اليوم بنشاط وحيوية. لم يكن لديها وقت للاكتئاب، كان عليها العمل كممرضة في المستوصف طيلة النهار لإعالة ستة أولاد. لا وقت للتأمل في الحالة النفسية، الأولوية للُقمة العيش.

يعود صوت المكبر ليردد صداه في الغرفة:

" على المقررين تقليص ساعات الاستجواب، الطاقة الاستيعابية لم تعد تحتمل، آلاف الوافدين في الانتظار".

بدا الإرهاق واضحًا على الرجل. ربما لم أكن الحالة الوحيدة في يوم عمله الطويل. اقترب مني حتى غدا وجهه قريبًا من وجهي. التقطت تفصيلًا آخر، الندبة على الجانب الأيسر من جبينه غائرة وهلالية الشكل، قد تكون حادثة في الصغر أو من مخلفات حرب.

محاولًا تسريع الاستجواب كلمني، هذه المرة، بمودة:

- اسمعي سيدتي، نحن لا نهتم بقيمة ما تقولين، إنها مسألة أرْشَفة. المهم أن يكون ملفك في الأرشيف كاملًا من الولادة

وحتى الوفاة..

كان الكلام موجهًا، أيضًا، للمساعدة التي علقت محتجة:

- لكن، يهمنا كذلك، توثيق ملاحظات عن الشعور الباطني واللاواعي للسيدة، وإلا كيف سنعرف أنها مهيأة للرحيل، كيف نطمئن أنها لن تهرب مرة أخرى من النفق؟

حدجها الرجل بنظرة صارمة، ربما حدس ما ترغب فيه من أسراري كامرأة:

- ركزي قليلًا.. ألا تسمعين ما يقال في المكبر، وافدون بالآلاف ينتظرون، يبدو أنك لم تستوعبي خطورة الموقف، إن لم نسرع، سينفلت منا الأمر، ويرحل إلى هناك الكثير من الحالات المجهولة، دون تقرير.

أحنت رأسها معتذرة. ومع ذلك، ظل يقيني قويّا، بأنها لن تتركني قبل أن تعرف.

الغرابة في تصرف المساعدة، هي أنني أجدها أحيانًا متأثرة وحزينة لما أقوله، إلى درجة الإدماع، وفي نفس الوقت

متحاملة وعدوانية، لا تفتح فمها إلا لتنصب لي فخّا.

مشاعر متناقضة تظهر في نفس الوقت. ربما هو اختلال هرموني، نقص في هرمون الإستروجين، يجعلها متقلبة المزاج بهذا الشكل الحاد.. لكنها شابة، ما تزال بعيدة عن سن اليأس.

إنها تلبس دبلة زواج، قد تكون زوجة معنفة تتعرض باستمرار للضرب، والإهانة اللفظية، والإهمال في السرير، والتحقير أمام الآخرين، أو الخيانة.. الخيانة، احتمال وارد. فحين تتعرض المرأة لخيانة الزوج، تصبح كل النساء عشيقات مفترضات، وتكره بنات جنسها. في هذه النقطة بالضبط، رغبت في تصحيح المعطى غير الدقيق للمساعدة، أملًا في تغير مشاعرها العدوانية. فمن الحيف كره كل النساء، فليس بالضرورة أن يكون الغريم امرأة، قد يكون رجلًا، يعني عشيقًا للزوج.

في الأخير وجدت أن الأمر لا يهمني، همي الآن هو تصحيح وضعي كرهينة حالة غامضة.

جهاز اللاسلكي:

".. احتفال بقداس عيد الفصح في الفاتيكان دون مصلين.. البابا يصلي للموتى والموبوئين طلبًا لرحمة السماء..".

شيء ما يحدث خارج هذه الغرفة.. شيء مرعب.

زلزال؟ تسونامي؟ وباء؟ جائحة؟

بدأت أشك في أن الحالة التي أوجد فيها الآن، لها ارتباط بما يجري في الخارج. ليس خارج الغرفة فقط، وإنما في العالم.

هل أفهم أنني في العزل الطبي؟

على الأقل أصبح لديّ الآن ثابت أسند عليه فرضياتي.

في ظل المعطيات التي تصلني عبر مكبر الصوت وجهاز اللاسلكي. ومن خلال حديث المقرر والمساعدة، حالة العزل الطبي تبقى أقوى الاحتمالات.

لكن، لا المساعدة ولا المقرر يرتديان ثيابًا واقية، أو يضعان كمامات وقفازات. كما أن المقرر لا يلتزم بمسافة المترين،

بيني وبينه، أو بينه وبين المساعدة.

الأكثر إثارة للاستغراب هو عدم اهتمام المقرر لما يصدره جهاز اللاسلكي من أخبار خطيرة. هل حياتي مهمة إلى هذه الدرجة، كي تشغله عن أحداث عالمية مهمة؟

غلب عليّ الفضول والرغبة في النبش في المآسي، فسألت:

- ماذا يحدث في العالم ؟

نهرني المقرر:

- ماذا يهمك في ذلك؟ إنه ليس عالمك الآن..

ثم بتعاطف:

- أعرف أنك تفكرين في أبنائك الأربعة، لكنك لم تعودي أمّا، ارتاحي قليلًا. حملت همهم أكثر من ثلاثين سنة، ارمي هذا الثقل عن كتفيك الآن، واهدئي..

تذكرت الكثير من التعب والهم، اللوم والتعنيف والجحود.

تذكرت أنني حاولت تجنيب أبنائي ألم الحياة، فكنت أما حاضنة بتشدد، وهو ما لم يتقبله أبنائي.

- أحاول أن أنسى، لكن خيطًا يخرج من رحمي، ما زال مربوطًا بهم.. نفس الخيط الذي أعادني عدة مرات إلى الحياة. هم حلقة الوصل الوحيدة التي كانت بيني وبين العالم.

- لا عليك، سيدتي، سأنبه الطبيب ليقطعه قبل رحيلك. ستَنْسينَ وتُنسينَ.. اهدئي الآن، لا شيء يخصك هناك، إنها الطبيعة توبخ البشر، وتعيد ترتيب الحياة على كوكب الأرض، لتذكرهم أنها الأقوى مهما أوتوا من عِلم.

المقرر يعرف أن لديّ أربعة أولاد. هو يعرفني دون شك. مع ذلك، ولا مرة ناداني باسمي.

- لكن ذكرى ضبابية، ما تزال طازجة في الذاكرة. ذكرى برائحة الرعب والهلع. خطر غير مرئي يطارد الناس في الشوارع.. أذكر أنني لُذتُ ببيتي، عزلت نفسي. لا أعرف إن كان أبنائي قد نجوا، أما أنا فقد نجوت.

ابتسم الرجل بسخرية، وبصوت خافت ضحكت المساعدة.

5

في الخارج، مازال المكبر الصوتي يبث موسيقى عسكرية، وبين الفينة والأخرى يوقفها لإرسال أوامر وتحذيرات:

".. أمراء وملوك، رؤساء ووزراء، نجوم سينمائية ورياضية، في قاعات الانتظار.. نحذر جميع مَن يشتغل في المركز أن التفضيل بين الحالات ممنوع منعًا كليًّا.. سيعاقب كل مَن يميز بين الجثث..".

داخل الغرفة مازال الشد والجذب بيني وبين المقرر، بين الصدق والكذب، بين المراوغة والوضوح، بين الاطمئنان والخوف، بين الترغيب والترهيب، بين رغبتي في الاستسلام والمقاومة، بين الذهاب أو العودة، بين دفء الموت وبرودة الحياة، بين ظلمة العالم ونور النفق..

كل مَن في الغرفة يسعى إلى الحقيقة، الرجل يسعى لمعرفة حقيقة تبرر حياة لم تعش، وأنا أسعى لمعرفة حقيقة وجودي في هذا المكان، والمساعدة تسعى لتوقع بي في مصيدة الاعتراف بالخطايا الكبيرة.

عدنا إلى نقطة البداية بسؤال المقرر:

- ذاكرة السنوات العشر الأخيرة بيضاء، تكاد تكون ممحُوّة تمامًا. ماذا حدث؟ أين كنت؟ ماذا فعلت؟ فيم فكرت أو تمنيت؟ فيم أخطأت؟ على ماذا ندمت؟

فكرت، لحظتها، في أن أحسن وسيلة للتخلص من هذين المعتوهين هي أن أحيلهما على الكتب التي ألفت..

أشرت بعيني إلى الكتب فوق الطاولة الجانبية:

- سيدي، كل شيء مدون وموثق في الكتب، ثقْ بما كتبت. قد أكون كاتبة فاشلة، لكن المؤكد أنني كنت كاتبة صادقة. في الحياة كان لي وضع خاص ومعقد، كان عليّ أن أحتاط كثيرًا كي لا أهدم البيت، كما فعل والدي. فأخضعت كتاباتي لضوابط عائلية واجتماعية وعقائدية. اختفيت وراء أقنعة، شخصيات مرفوع عنها القلم، لا يطولها العقاب الإلهي أو عقاب البشر. احترفت لعبة الخفاء والتجلي. كان الحلم، والجنون، والغيبوبة، أنجح الأقنعة لقول الحقائق، أقنعة صنعتها كما كنت أصنع أقنعة ورقية وأنا طفلة، لأخيف بها

أختي الصغيرة.. ها أنا الآن تحت قسم الموت، كما قلتَ، أزيح تلك الأقنعة، لأجل خلاص الروح كما في قاموسكم، ومن أجل خلاصي منكم.

اتسعت حدقتا الرجل، انفرجت أسارير المساعدة وعلقت:

- هذا الاعتراف ليس في صالحك ككاتبة. الجبناء هم مَن يحتاجون لأقنعة.

- لم أقصد التحايل على القارئ، كنت أسعى أن أجعل من لعبة الأقنعة أدبًا رفيعًا، طريقة لتسويغ حياة صعبة، وتجميل واقع بشع.

تجاهلتها، توجهت للمقرر:

- كل ما يتعلق بفترة 2010 و2012، ستجده في رواية "العدم عميقًا". أما تفاصيل الفترة 2012 و2014 فستجدها في رواية "اللواتي". قد تبدو لك، هذه الرواية، حكاية حيوات عشر نساء، غير أنها حياتي أنا، موزعة على أخريات. أما أحداث السنوات الموالية فستجدها متفرقة في المجموعة القصصية "الموشومات"..

تذمر المقرر:

- لا أحب الشعر ولا الرواية، أعتبرهما هلوسات مخيلة الإنسان. أنا واقعي، لكن سأتقبلها لأن مهمتي تفرض ذلك..

تصفح الكتب:

- كيف سأقرؤها، كل الصفحات سوداء كتبت بالحبر الأسود.

أعاد الكتب إلى مكانها.

بادرته:

- ليس بإرادتي. في الأول، أنتقي كراسات جميلة بصفحات بيضاء، بياضًا يغري بالبوح أكثر من الإبداع المحايد. لا أعرف، لكن كلما جلست لأكتب تدفقت لغتي السوداء وساحت على بياض الورق.

مد المقرر يده، تناول آخر رواية "منسيات الحروب"، تصفحها. قبل أن يعلق، أسرعت لتنبيهه:

- هذا الكتاب بالضبط لا علاقة تربطني به. هي رواية من بلد بعيد وزمن آخر..

- هل أنت واثقة من هذا؟

سأل وهو يفتح الكتاب على صفحة معينة، ويقرأ بصوت مرتفع:

".. ابتعدت الحرب، واستعاد العالم إيقاعه. لم يبق من تلك المرحلة غير هواجس" ديّين" الشخصية. هي الآن، تجلس كعادتها على نفس الطاولة المنزوية في عمق المقهى، أمام كأس عصير الليمون والزنجبيل، تعبث أناملها بالمنديل الورقي وتفكر في الخطوة التالية.. القطة الصهباء التي تعرفها جيدًا، تنام عند رجليها..

كانت تمطر بقوة وتقذف زخّات عنيفة على زجاج الواجهة.. أخرجت قلمها الأسود ورسمت على منديل الورق طريقًا طويلًا يبدأ بحرب وينتهي بمنعطفين.. فكرت: أي منعطف ستسلك الآن؟

توقف المطر، بسرعة البرق، قفزت القطة وغادرت. تأملت هذه الفسحة التي قدمتها السماء للقطة كي تخرج إلى براح الحرية.. الحياة كذلك تقدم لنا فسحة للقفز من سفينة تغرق، أو للنزول من قطار حاد عن السكة، أو للهروب من شراكات مريضة.. وحده مَن يمتلك الشجاعة يقفز في الوقت المناسب. الجبناء هم مَن يظلون عالقين..

عادت لتتأمل الطريق التي رسمتها والمنعطفين.. مر النادل مرتبكًا وأهرق كأس العصير على المنديل الورقي، فاختفى الطريق والمنعطفان..

ابتسمت "ديِّين" للنادل مُطمئنة:

- لا بأس، إنها مجرد نظرية.. لا يمكن لامرأة أن تقفز من السفينة وحملها أربعة أولاد..".

- أليست هذه بعض من أمنياتك؟ لا تنكري أن هذه الفقرة تخصك.

تلكأت في الكلام:

- ربما.. ربما، لم أستطع أن أمنع مشاعري من التسلل إلى دواخل شخصية "ديّين"، بل تدخلت وحرضتها على الانتحار في آخر الرواية. ففي لحظة ضعف، اسودت الحياة في عيني، وانغلقت الأبواب، فنفذت عبرها إلى الموت، كان عليّ أن أجعل الشخصية تنتحر، وإلا كنت انتحرت أنا.

جهاز اللاسلكي:

".. رئيس الحكومة الإسبانية يعلن حالة الطوارئ القصوى.. مدريد تحت الحجر الصحي. حوِّلْ..".

لف المقرر إلى الناحية الأخرى للسرير. من على الطاولة الجانبية، تناول جذاذة بيضاء:

- كل مسوداتك مكتوبة على ورق مسطر بمربعات. لا أظن أنك كنت تعانين من انحراف النظر أو الحول.

- ليس مرضًا عضويًا. داومت، ومنذ الصغر، على استعمال الأوراق المسطرة بمربعات، كرغبة دفينة في البقاء خلف السياج. طبيبي النفسي فسر ذلك بالخوف من الآخرين، ومن العالم الخارجي. الخطوط والمربعات كانت كقضبان حديدية

تحميني من الخارج، لم أستطع التحرر منها حتى عندما كبرت.

توجهت بالكلام للمساعدة:

- يمكنك أن تدوني أنني كنت جبانة، تخيفني المواجهات، الجبن خطيئتي الكبيرة. الخوف كان في قاموسي الخاص يقابل الألم.. هذا لا يعني أن الجبن كان خطيئتي الوحيدة، كانت لديّ خطايا لا تعد.

أخطأت حين أوّلت الوهم بالحقيقة. أخطأت في حق جسدي حين أطعمته حطب السنوات العجاف. أخطأت حين بادلت الربيع بخريف ذابل، وقايضت فتوة الشباب مقابل عش فارغ للكهولة. أخطأت حين توهمت بأن صفرة الأوراق الذابلة ذهب خالص.. جلها كانت خطايا صغيرة لم تُؤْذِ أحدًا ولا تستحق هذه المحاكمة الطويلة في هذا القبو.

بدا تعاطف جلي من المقرر بخلاف المساعدة التي عارضتني:

- من أين لك هذا اليقين؟ التفتي وراءكِ، الأكيد أن هناك من

يلاحقك باللوم. عبور الحياة لا يخلو من أذى ألحقناه بآخرين عن قصد أو عن غير قصد.

ثم حولت الحوار لاتجاه آخر:

- ما قصة طبيبك النفسي؟ أنا لا أحاول هنا الإيقاع بك، يحدث أن يغرم الطبيب بمريضه، أو العكس.

رنين الآلة يرتفع، تسجل الشاشة 140 نبضة في الدقيقة.

يتدخل المقرر، يقترح على المساعدة:

- هذه الحالة علبة أسرار مغلقة، دعينا نركز على المؤلفات. هناك خيط لا مرئي يربط بين الكتب سنتتبعه.

مد يده مرة أخرى نحو الكتب، تناول مجموعة شعرية بعنوان "طيِّ النسيان"، فتح الكتاب على القصيدة الأخيرة:

".. الآن، وقد شربتُ من قطر السماء حتى ارتويتُ.

سأغني الموت بكل أسمائه، وبأعلى صوتي أُعلنُ:

لقد اكتفيت، فافْلِتيني أيتها الحياة ".

ثم علق:

- إنها ليست مجازًا، ولا لعبًا بالحروف والكلمات، إنها إقرار، دليل على الاكتفاء من الحياة، واعتراف صريح برغبتك في الموت.

التفتَ إلى المساعدة، وأمرها بحماس من اكتشف شيئًا نادرًا:

- سجلي هذا بالأحمر.

تمتمت بمسكنة:

- وما أدراني أنا، كانت فيض روح. كيف كنت سأعرف أنها القصيدة الأخيرة في منشوراتي الشعرية..

مكبر الصوت:

".. حالات قادمة من دور العجزة بإسبانيا وبريطانيا،

تلزمهم معاملة خاصة، مازالوا تحت الصدمة.. هرب المشرفون وتركوهم لموتهم.." .

غشاوة تحجب الرؤيا، وهن، انخفاض في ضغط الدم يطلق صفير آلة تخطيط القلب.

خفض المقرر من نبرة صوته، ليظهر لي تعاطفه:

- يبدو أنكِ تعبت، ذاكرتك بدأت تتفكك، ودقات قلبك ضعفت، لقد قل الأوكسجين في مخك. سأقرأ عليك فقرات من "الموشومات" وما عليك سوى التعليق بالتوضيح، أو حتى بالإضافة إذا كانت لديك القدرة.

نوه بتصميم غلاف الكتاب:

- صورة امرأة جميلة مبتسمة، تزين شعرها بإكليل زهر الأقحوان.. غلاف جميل. مع الأسف، لا يتماشى مع المحتوى الكئيب.. في إحدى القصص تقول الساردة، أو لنكن واضحين، قلت أنتِ على لسان الساردة:

".. الساعة السابعة صباحًا. أزحت الغطاء عني. كنت أسبح

في بركة دم، بل كان الدم يسيح على جنبات السرير. اعتقدت أنني في عمق النوم أحلم.. قبل أن تنبهني لزوجة الملاءة إلى أنني أنزف. ناديت بصوت عالٍ، أيقظ المولود الذي ينام في حضني. تقاطع صراخي ببكائه مثلما تقاطع موتي بولادته في الليلة السابقة. ليلة دامية وصراع بين جنين يريد الخروج للحياة وموت يريدني بالمقابل.

أخذت مني ممرضة رضيعي، وحملتني أخرى في سرير ملولب نحو قاعة الإنعاش... الدم الذي أنقذني يومها، هو الذي ما فتئ ينصب لي كمينًا تلو آخر.. لا أحد يستطيع التحكم في قدر الموت، لأن أي تغيير لمجراه ينتج عنه حتمًا، لعنة عمر مضاف".

- هل هذه إحدى ميتاتكِ؟

- تلك كانت تجربة تركت فيّ أثرها، كأول لقاء مباشر لي مع الموت. ارتأيت أنني لو كتبتها سأتخلص من أثرها.. يظن الكثيرون أن الكتابة تدوين وترسيخ لألم ما، لكن، صدقني إنها في كثير من الأحيان تكون علاجًا نفسيًا، تمرينًا على النسيان. نفس العلاج شفَيْتُ به أمراض كثيرة أصابتني بها الحياة، كفيروسات عدوى تصيبنا من تعاملنا مع الآخرين.

الكتابة كانت علاجًا لكل الأمراض إلا مرَضي الوحدة والاكتئاب. لأن الكتابة تقتات منهما.

جهاز اللاسلكي:

"بيان من دارة كلارنس هاوس: ولي العهد البريطاني الأمير تشارلز مصاب بفيروس كورونا وسيخضع للحجر المنزلي في قصره.. حوِّلْ".

انتبهت إلى أن بردًا أزرق يتسلق جسدي. كلما قرأ المقرر فقرة، مات جزء مني. بدأ بقدمي صاعدًا ساقيَّ وحوضي ووصل إلى بطني..

- من قصة تحت عنوان "حب في زمن الوباء" تحكي الساردة، وكملاحظة، كل سارداتكِ نساء:

".. عدلت زنّوبَة من جلستها على الأريكة العريضة. وبدأت أول درس لمريدتها الجديدة:

- .. دعيني أحدثكِ عزيزتي عن الحب في زمن الوباء. حب ليلة واحدة. بين عابرين يتحديان الموت في سرير فندق من

الدرجة الثانية.. غريبان لا يعرفان عن بعضهما غير الأسماء الأولى.. الغرفة باردة لا يهم.. الإنارة خافتة لا يهم.. ملاءات السرير تفوح منها رائحة النيكوتين ورائحة مضاجعات سابقة.. لا يهم.. ما يهم هو التحام الجسدين حتى لا يبقى منهما غير جسد واحد.. تدفقت الرغبة على جنبات السرير.. تساقطت القبل على الملاءة وشكلت ورودا حمراء تنام في حضن مزهرية.. يوشوش الرجل أحبك وإلى الأبد. تحلم المرأة ببيت وأولاد..

تسقط المزهرية وتتحطم على بلاط الغرفة، يفزع الرجل، تتطيَّر المرأة. تشظِّي المزهرية يعني أن حبّا وصل نهايته..

الخلاصة عزيزتي، أنه مهما رتقتِ جيوب القدر فسيسقط من حياتك رجال كثيرون..".

- في هذه القصة بالضبط، حاولت أن أكتب الحب والفرح، أن أستبدل القلم الأسود بالزهري أو الأخضر، أن أكون رسولة الأمل. لم أفلح. وضعي كامرأة من العالم العربي، لم يساعدني كثيرًا، بل عمّق الهُوّة بيني وبين الفرح، ووتّر علاقتي أكثر بالعالم.. كلما حاولت أن أكتب فرحًا وحبّا سعيدًا تتدخل الأقدار لتضع حاجزًا بين الشخصيات وبين السعادة.. ما ذنبي

أنا، إن كانت كل شخصياتي الروائية بمصائر محطمة؟

جهاز اللاسلكي:

" بيان من قصر بكنغهام: تم نقل الملكة إليزابيث الثانية وزوجها إلى قصر وندسور خارج لندن، حوِّلْ.. جميع الاحتياطات اتخذت لتجنب فيروس كورونا.. حوِّل".

أشعر بالغثيان، أحاول أن أتقيأ ما بداخلي، أتذكر أن البرد وصل إلى بطني، ومعدتي كما الأمعاء تجمدت.

- .. دعني أطلعك على سر، لجنة القراءة في دار النشر لم تستحسن مجموعة "الموشومات" بل أوصت بعدم النشر، إلا في حالة قيام الكاتبة بتعديل بعض الموضوعات، للتخفيف من جرعة الحزن والأسى الصادمة.. فأرسلت جوابًا مطولًا كاحتجاج، دافعت فيه عن السوداوية المهيمنة على نصوصي، وأشرت إلى أن الأدب الحقيقي لا تصنعه السعادة أو الفرح، بل يصنعه الألم، وأن هذه اللعنة في الكتابة صنعت أسماء كبيرة في الأدب، لأنه أسلوب يساهم في مواجهة الأزمات بالكشف عن التناقضات، ونقد حاد، كطريق لترسيخ قيم المساواة بين الجنسين، والعدالة، وتكافؤ الفرص لأن

الكتابة فعل متضامن..

في آخر الرسالة استشهدت بمقولة لمخرج سينمائي مشهور: "لا تطلبوا مني أن أضيء دراما بألوان الكوميديا، لا بد للإضاءة أن تكون عادلة". كنت أقصد أعضاء لجنة القراءة.

تدخلت المساعدة، بنية الإساءة كعادتها:

- طبعًا، لم تكن قناعتك، كنت تدافعين عن فعل الكتابة أكثر مما كنت تدافعين عن الإنسان.

في هذه اللحظة أحسست بالخطر الأكبر. إنهما لا يسعيان، للاستيلاء على ذاكرتي فقط، بل يسعيان كذلك لهدم مشروعي الإبداعي، بتتفيهه وتجريده من هدفه النضالي، وما سيكون بعد موتي أبديتي الصغيرة.

لولا أن لي قلبًا طهره الموت مرتين، لكنت كرهت هذه المساعدة.

دافعت بشراسة:

- لقد فشلت في معظم المهام التي كُلفت بها في الحياة، لكن لا أريد أن يقال عني إنني كنت فاشلة في الدفاع عن جنسي كأنثى. أنا لم أكتب سطرًا واحدًا إلا وقصدت به إنقاذ حياة امرأة.

انفعالي سرّع وصول البرد الأزرق لصدري. أحسست بانقباض وضيق في التنفس. بدأ جهاز التخطيط يصدر رنات قوية متسارعة. أرقام العداد تصعد وتنخفض.

مكبر الصوت يعلن مرة أخرى:

"نظرًا لقلة أجهزة التنفس الاصطناعي، بدأنا مرحلة الاختيار القسري لمن سيتلقون دعمًا بالتنفس الاصطناعي. الأولوية للأشخاص ما تحت سن الستين، نرجو تفهم ذلك".

فكرت بسرعة، مرضي قاتل، وفي هذا المكان، وهذا التوتر، وتحت تأثير الحقن، قد أحتاج لمساعدة من هذا النوع، لجهاز تنفس. عليّ أن أخبر المقرر بأنني لم أكمل بعد الستين من العمر، أنا من مواليد أواخر شهر ماي، مازال أمامي أكثر من شهرين. صحيح أنني رسميًا متقاعدة، لكنّ موظفي صندوق الضمان الاجتماعي هم من أخطأوا في تاريخ ميلادي،

وصنفوني من مواليد شهر يناير..

أهيئ الشفاه للكلام.. لا شيء. إنه كلام، حسب المقرر، خارج السياق وغير مباح.

ألم في الرأس، رغبة قوية في السعال، تشنج في العضلات، دوار، وشبه غيبوبة.

رنين الجهاز يتباطأ.

6

أين ذهب العالم؟

لماذا لم ينتبه أحد لغيابي، طيلة هذه الساعات؟

هل هناك مَن يبحث عني في هذه البناية؟

ماذا لو كنت قد ابتعدت عن عالمي، وتحولت الساعات هنا إلى سنوات، فطال غيابي ونسيني من هناك؟

كثيرًا ما نعتقد أن أشخاصًا ما زالوا يمشون معنا في نفس الطريق، حين نلتفت لا نجدهم.. إما انعطفوا إلى طريق آخر، أو أسقطونا من حياتهم بالنسيان.

إن كنت هنا أو كنت هناك، فالثابت هو أنني أحارب عالمًا غريبًا وحدي. وإن تخليت عن حيطتي وانسقت لتفكير هذين الغريبين، فلن أستعيد عالمي.

مكبر الصوت:

".. بعد أيام فقط، ستنتهي فترة حضانة الفيروس في شمال أفريقيا وبلدان أمريكا اللاتينية.. أمامنا مدة قصيرة لإفراغ المركز من الحالات الأوروبية والأمريكية.. الحالات الآسيوية في نقصان مستمر..".

أدركت أنني أحارب عدوّا يعرف عني كل شيء، فأفكاري تصل فورًا، و بطريقة ما، إلى عقل المقرر فيستبق أجوبتي. هو لم يصدقني في كل ما قلت، بل يتظاهر بذلك. رغم سذاجتي في التعامل مع الرجال، فأنا أعرف متى يكذبون ومتى يصدقون. أنا كذلك، في فترة ما، كنت أتظاهر بتصديق كلامهم الرومانسي، لكن حس الحيطة كان دائم الحضور، كانت هذه حصانتي الوحيدة ضد الألم والندم.

أما المساعدة فقد أدركت بحدس الأنثى، أنني كلما استرسلت في الحكي، كلما سقتهما إلى مناطق أكثر غموضًا. زمت شفتيها بعصبية، واستغرقت في لحظة تفكير عميق.

انحسر الخوف.

لحد الآن أنا المنتصرة في هذا الحوار. ما زلت على الحافة،

حافة أي شيء وكل شيء، لم أسقط بعد. ومع ذلك يجب أن أظل حذرة، فبمجرد أن أخطو داخل واقعهما سأفقد واقعي إلى الأبد.

وجهت عقلي الباطني نحو فيلم سينمائي، وأقنعت نفسي بأن ما يحدث في هذه الغرفة ليس واقعيّا، ولست أنا، هو مجرد فيلم من الأفلام القيامية التي أدمنت مشاهدتها مؤخرًا على منصة نيتفليكس. الدليل على أنه فيلم، اختفاء المشهد كله بانقطاع الكهرباء، وتمويه الإضاءة الذي جعلني أرى الأشياء مثلثة.. في بعض اللحظات، عند استرجاع أحداث الماضي، تغيم عيناي وتصبح المشاهد بالأبيض والأسود.

وجدتني أكثر اطمئنانًا لهذا التفسير، وأكثر تركيزًا في التفكير. فكرت أن أدع كل الأسئلة التي تشغلني إلى مرحلة أخرى. السؤال الرئيسي لماذا أنا في هذه الغرفة؟ ليس سؤال اللحظة، ليس بعد. حتى الشك في هذين الشخصين لن يفيدني كثيرًا. يجب أن أسايرهما في كل الأحوال، مهما كانا مختطفين، محققين، مجنونين، مخبرين، طبيبين، أو مخلوقات من عالم آخر..

المقرر يقرأ أفكاري، مرة أخرى:

- ألاحظ أنك بدأت تتخلصين من الخوف وتتقبلين موتك.

- لو كنت ميتة لعرفت ذلك. لقد سبق واختبرته.

- أنتِ لا تريدين تصديقه لأنك ترفضين الموت. حالتك الآن تختلف عن المرة السابقة، كنت أقل تشبثًا بالحياة ولم يكن الموت رعبك الأكبر.. كلما اكتفى الإنسان من الحياة يكون موته سهلًا، كلما طمع في المزيد كان موته صعبًا عليه وصعب مهمتنا. لو آمن البشر أن الموت عبور وليس نهاية، تواجد آخر بشكل مختلف، لذهبوا إليه مطمئنين راغبين.

استطرد:

- من سوء حظك، أن معاملة الحالات الجديدة تختلف عن معاملة الحالات العائدة، التي تعامل بصرامة أكثر. ويخضعون لأسئلة خاصة، كنوع من العقاب. غير أن هيئة المركز خففت عقابك، لأنها أخذت بعين الاعتبار كتمانك لسر النفق، أنت ممن خبرَ وكتم.

تدخلت المساعدة، وبعدوانية أكثر:

- هي لم تكتم السر، بل نسيته، كان السر ضمن ملفات الذاكرة المفقودة.

تجاهلتها كما تجاهلها المقرر.

أبديث احتجاجًا على تصنيف مجحف:

- لكن لماذا تحسبون عليّ موتًا ناقصًا، موتي الأول لم يكن كاملًا، كان موتًا إكلينيكيًا.

- احمدي ربك أنك لم تكوني من المنتحرين. الحالات العالقة، الممنوعة من مملكة السماء، فيروسات المركز التي لا تنام. أبواب غرفهم حمراء، لا يدخلها المقررون. يعيشون بأمل الموت وحسرة الحياة. يذهبون كل يوم إلى البوابة ويعودون. أسباب رفضهم تظل غامضة.

تذكرت صديقاتي في اليأس والكتابة: "سيلفيا بلاث"، "فيرجينيا وولف"، "أديل هوغو".. ربما هن جاراتي في السكن، خلف الأبواب الحمراء التي رأيتها في الممر، لحظة

انقطاع الكهرباء.

- ليس عليك التذمر سيدتي، لحد الآن تقريرك حميد، مصنف في درجة المستحسن، من سلم الأهلية.. هناك تقارير يقشعر لها البدن، ترعبنا نحن المحصنين من الرعب: تقارير القتلة، تجار السلاح، صانعي الأوبئة.. رغم أنه، ومن من منظور قانوني، تقريرك يفتقد إلى الاستدلال والشهود، حياتك تشبه جريمة كاملة. لا شاهد نفي أو إثبات على أقوالك وأفعالك. كنتِ شديدة الكتمان لا تثقي في أحد..

مكبر الصوت:

".. عليكم الإسراع بتسليم الجثث، الجنازات جماعية وستقام صلاة واحدة.." .

نظر المراقب في ساعته، تبادل نظرة خفية مع المساعدة.. يبدو أنهما قررا أو اتفقا على شيء ما.

تتساءل المساعدة:

- أليس هناك خطورة في حقنة ثانية؟

- لابد من المخاطرة، ذاكرتها مغلقة، مازالت تخفي شيئًا. يجب أن نسرع. سنستقبل وافدين بالآلاف من أفريقيا وأمريكا اللاتينية.. احتياطًا، دوِّني ملاحظة جانبية: "أبدت الحالة مقاومة شديدة، فاضطررنا لحقنها للمرة الثانية".

جهاز اللاسلكي:

"بريطانيا تتوجه نحو سياسة "مناعة القطيع" في مواجهة كورونا، بدل الحجر الصحي.. احتجاج شعبي خجول ضد التضحية بالمسنين.. حوِّلْ".

بعد أقل من دقيقة من الحقنة الثانية، تدفقت ذكريات كثيرة كما الحلم. انثالت شذرات متفرقة، صورًا مقطعة، كلعبة بُزْل معقدة يلزمها مجهود كبير لتجميعها وترتيبها في سياق منطقي لأحداث معينة..

انساب الكلام. أتكلم بسرعة وأنا ألهث، كأنني أجري في مكان آخر، لا أتوقف إلا لالتقاط أنفاسي، لأن الذكريات هاجمتني من كل اتجاه:

- أذكر أن الموت كان رحيمًا بي وقاسيًا على موتاي،

أخطأني عنوة مرتين، لأشهد جنازتين وأقف على قبرين، مطلين من علوّ ربوة. قبر في مدينة صغيرة على هامش الحياة، وآخر في مدينة مقدسة، أقرب نقطة للسماء.

أذكر بيوتًا، محطات لقطار الحياة.

بيت الطفولة في مسقط الرأس. بيت الأمومة بالدار البيضاء. بيت الكتابة في الرباط. بيت الحلم، دافئ وجميل يطل على البحر. بيت الأشباح، أشباح رجال عراة، يتجولون بين الغرف الكثيرة، كل رجل تتبعه كلبة مطيعة. بيت بحديقة كبيرة مهملة، لا نبات فيها غير أصيص الخزامى ينشر عطره في الحلم..

أذكر بيوت الله المطهرة: البيت الحرام في مكة، المسجد النبوي في المدينة، مسجد السليمانية في إسطنبول، مسجد كوكيمبو في الشيلي، كنيسة القلب المقدس وكنيسة نوتردام في باريس، مسجد عائشة في ينتشوان الصين.. بيوت لها رائحة التوبة والتخشع. كل بيوت الله رددت صدى صلواتي طلبًا لسلام قلبي وسلام العالم.

شهيق ثم صمت.

- أذكر غرفًا كثيرة في دهاليز العمر.. غرفة تطل على النهر برائحة الخيانة العفنة. غرفة الروح الكسولة لا تدخلها الشمس أو تُزهر فيها رغبة. غرفة القلب الفارغة لا يدخل إليها الحب. غرف الخيبة في فنادق بلدان بعيدة..

مكبر الصوت:

"انتباه.. عشرون ألف حالة وافدة من بريطانيا.. أغلبهم مسنون..".

رجفة قوية تهز جسدي، جفاف في الحلق، وكحة جافة عالقة في الصدر. أشعر بالعطش، أطلب الماء. جملة الطلب لا تغادر شفاهي، يبدو أنها من الجمل غير المبرمجة.

أتابع:

- أذكر أسرة جمع بينها اللون الأبيض ورائحة المرض: سرير بمصحة "قلعة الرب"، ولادة الموت وجنين يلفظه الرحم قبل الأوان. سرير بمصحة "الرحمة"، ولادة مستعصية ونزْف آخر الليل، الموت دون شهادة وفاة. سرير بعيادة "الليمون"، الموت مرتين مع وقف التنفيذ. سرير بـ"مشفى الله"، التنقل

بين عالمين ذهابًا وإيابًا دون موت معلن. سرير بمستشفى "سالْ بيتريّير" بباريس، تأكيد موت قريب بجينات وراثية.. وهذا السرير الذي بلا رائحة، الذي تقيدونني الآن إليه، هل سيكون آخر الأسرة البيضاء؟

تنهدات ثم صمت.

جهاز اللاسلكي:

"عشرون ألف وفاة في فرنسا.. حوِّلْ. وزيرة الدفاع تعلن عن مئات الإصابات بوباء كورونا في صفوف الجيش الفرنسي".

- أذكر وجوه أحبتي. والدي في سن الأربعين، وجه حليق وجميل، شارب رقيق، هندام مرتب، يحمل كراسات، مسطرة كبيرة، منقلة، فرجار، مثلث.. لوازم درس الهندسة، ولُعبي كلما غافلت والدي. أعترض طريقه وأنا طفلة بمريلة وردية وضفيرتين، أعانقه، أقبله قبل أن يركب سيارته، ليلتحق بتلاميذه في البلدة المجاورة. أنا، الطفلة المفعمة بالحياة، أتابع سيري، أنزل المنحدر، أعرج على ورشة بناء بيتنا الجديد، ألعب بين الطوب والإسمنت، أداعب رشاش الماء،

أبلل القليل من الرمل لأبني قصرًا لطفولتي. والدي كان يبني لنا بيتا جديدًا من طابقين، يسعنا نحن الستة أبناء. نفس البيت الذي هدمه فوق رؤوسنا، في حالة جنون، بعد سنوات.

نحيب ودمع.

- أذكر جدتي تغزل الصوف في بهو البيت، وهي تسرد حكايات العائلة، ما تبقى من سنوات العز والسلطة. ينزلق طقم الأسنان السفلي من فمها، يتعثر الكلام بين شفتيها. نضحك نحن الصغار، ونمضي إلى الشارع بعيدًا عن حكايات الجدة المكررة..

.. أذكر والدتي عائدة من عملها بمستشفى الأمراض الصدرية. أتمسح بتلابيبها، أستنشق رائحة المعقمات والأدوية. قبل أن تنزع عنها المعطف الأبيض، تلتحق بالمطبخ، وتبدأ بقلي البطاطس أكلتنا المفضلة..

فجأة تذكرت أنني لست وحدي في الغرفة:

- نسيت أن أخبركم، أن أول حقنة أخذتها كانت من أمي.

ولدت بمناعة ضعيفة، كل الأمراض توالت على جسدي الصغير. حقنتني بالكثير من الحقن، أعطتني العديد من الأدوية، آخرها كان جرعة من النيفاكين.

جهاز اللاسلكي:

".. جدل حاد بين الأطباء في فرنسا حول نجاعة دواء الكرولوكين في القضاء على فيروس كورونا.. حوِّل".

- أنت متهمة ككاتبة بهوس الموت، يلقبونك بخفاش المقابر.

صوت المقرر، نبه حواسي.

- لم أكن مهووسة بالموت، بل كنت دائمة الاستعداد لموت آخر ينتظر عند المنعطف. الأمران مختلفان. الإيمان بالموت قيمة مضافة للأحياء. فقد عرفت الموت منذ الصرخة الأولى. كنت في عداد الموتى لمدة سنة وأنا رضيعة. في لحظة يأس من العلاج، وضعتني جدتي في قبر مجهول لولي صالح يشفي الأطفال، يسمونه سيدي الشافي، لعل الموت يعافني ويتركني للحياة. بعد ذلك، تعددت التفسيرات لسبب شفائي، هل كانت جرعات زيت كبد الحوت ودواء النيفاكين الذي

أعطتني إيّاه والدتي؟ أم تلك اللحظات الغرائبية في القبر، التي اقترحتها جدتي؟..

كانت تلك بداية مطاردة مستمرة من الموت. منذ حينها وهو يحوم حولي، يأخذ كل من يقترب مني. طمع حتى في زوج معطوب. أخذ مني الموت زوجي وترملت وأنا في ريعان الشباب. ولسبب لا أعرفه، اختار من بين أبنائي جنينًا في شهره السابع وانتشله من أحشائي.

تدخلت المساعدة :

- سيدي إنها تعيد أحداثًا قديمة، قبل 2010.

يعبر الرجل إلى جانبها، يحدق مليّا في الشاشة ليتأكد بنفسه. يبدو أنه لم يعد يثق فيها كثيرًا.

عاد إلى مكانه فوق رأسي :

- توقفي من فضلك.

لم أتوقف. عيناي مغمضتان، شفتاي تتحركان.. حاولت

التوقف لكن الكلام ظل ينزلق من شفتي لا إراديّا:

- أذكر نفقًا، وأذكر حارس النفق، إنه يشبهك تمامًا. كان هناك الكثير من الناس، منهم من يعبر، ومنهم لسبب ما يظل عالقًا. أنا كنت جبانة كعادتي، صفعة خفيفة من طبيب الإنعاش ثم صعقة كهربائية، وتركت النفق مهرولة..

جهاز اللاسلكي:

"بيان رسمي من مقر الحكومة البريطانية: رئيس الوزراء يدخل وحدة العناية الفائقة بعد استفحال إصابته بفيروس كوفيد 19".

جس المراقب جبيني:

- حرارتها مرتفعة، إنها تهلوس.

صفعني صفعتين خفيفتين على وجهي.

تشنج في عضلات القلب، اهتز كل جسدي.. رنين جهاز التخطيط يسجل انخفاضًا مستمرّا.

هلعت المساعدة:

- نبهتك إلى أنها لن تتحمل حقنة ثانية.. إنها سكتة قلبية، يجب إسعافها بالصدمة الكهربائية أو حقنها بالأدرينالين..

تمتمت بلا صوت:

- إلا الأدرينالين، إنه ينعش القلب لكنه يتلف الدماغ. في الأزمات السابقة أتلف الكثير من الذكريات السعيدة.

تناول الرجل حقنة صغيرة وأفرغها في الخرطوم المثبت بذراعي.

صمت.

انحنى الرجل مقتربًا أكثر، فحص بؤبؤيّ:

- إنها تعود.. فقط ذاكرتها غير مرتبة، فيروس الوهم خرب الكثير من الملفات.. ربما علينا إغلاق هذا الفصل. والانتقال إلى الفصل الأخير.

كنت أريد أن أصحح له، ليس الوهم وحده، الألم كذلك.

جهاز اللاسلكي:

"حسب منظمة الصحة العالمية: الوباء ينتقل بسرعة عبر الهواء.. غالبية سكان الأرض سيكونون عرضة لفيروس كورونا الذي سيستمر لفترة طويلة.. حوِّل ".

جملة "الانتقال إلى الفصل الأخير"، أيقظت خوفي من البدايات، لا أحب التغير أو الانتقال إلى أي شيء. يخيفني الرقم صفر، تخيفني البدايات المجهولة.. الحزن يجثم على صدري، حزن ملتبس. أنا الخبيرة في الأحزان، لا أفقه هذا الحزن. حزن على فراق وفرح بالرحيل.

جزء مني تسلل من الغرفة ودخل مكانًا آخر.. صرخت بأعلى صوتي:

- مهلًا سيدي، لا تغلق الفصل، أمامي مشهد غريب، إنه ليس من الذاكرة، شيء يحدث الآن، في مكان آخر.. أرى ميزانًا نحاسيًا كبيرًا، معلقًا في الفراغ، كما لو أن سلسلة لا مرئية تربطه بقبة السماء. جسدي في كفة، روحي في الكفة الأخرى،

ككرة من بخار. نفس البخار الذي كان يخرج من أفواهنا في الصباحات الباردة ونحن صغار ذاهبون إلى المدرسة. نتنافس على من منا سيخرج من فمه بخارًا أكثر.. أنا الآن أشق طريقي وسط الضباب، ألمس جسدي فأجده باردًا كقطعة ثلج. ألمس روحي فلا أجد سوى الفراغ. يبدو أن روحي، رغم أنها من بخار، أثقل من جسدي، فكفة الروح مائلة بشكل واضح.. أحاول أن أوقظ جسدي فيتشظى حروفًا وكلماتٍ، ألمس روحي فتتلاشى كما البخار الذي كان يتلاشى في الهواء من أفواهنا الصغيرة..

يتردد المقرر قبل أن يتدخل:

- البروتوكول، المعتمد هنا، لا يسمح لي بالتدخل في رُؤياك الآنية، لكنني سأخرقه لإنهاء عذابك وتسريع الاستجواب. إن روحك وجسدك متنافران، غاضبان من بعضهما، إنه الندم على ضياع عمر كامل. حسرة الجسد وغضبه من الروح التي كانت باردة سلبية خالية من محفزات الحياة : الرغبات، المغامرات. يوم المحاكمة سيكون جسدك هو خصمك، لا أظن أنه سيسامحك.

سألته :

- هل هذا المشهد يحدث أو سيحدث في العالم العلوي؟

سكت مترددًا:

- إنه خطأ في البرمجة حدث لحظة العطب الكهربائي أو فيروس. حتى أجهزة المركز لا تسلم من الفيروسات. المشهد تسرب إلى عقلك من عالم ثالث، عالم لا أحد يعرفه، حتى أنا العالم بحياتك وحيوات الكثيرين لا أعرفه. ما أستطيع أن أخبرك به، هو أن المحاكمة لن تكون سهلة. فأنت ارتكبت أفظع خطيئة، وهبك الله حياة فضيعتها، ثم أهداك أخرى، كعمر مضاف، فضيعته كذلك.. الله لا يحب من يضيع هداياه.

جهاز اللاسلكي:

".. نيويورك أضحت بؤرة للوباء.. حوِّل.. مقابر نيويورك، لم تعد تستوعب الموتى.. حوِّل".

- هل أنت نادمة على شيء؟

سأل المقرر:

- هل تقصد ندمًا في الحياة الأولى أم الثانية؟ قد لا أذكر موتي، لكنني أذكر أن حدثًا مفصليًا، قسم حياتي.

- هذا السؤال كلي وجامع، يخص الحياتين. لأنه يدخل في الخلاصة.

- لم أملك الكثير لأندم علي خسارته. لم أندم على أشياء، ندمت على معتقدات، أفكار ومعادلات مقلوبة، زرعوها في عقولنا الصغيرة، ضيعتني، أنا شخصيًا، مرحلة من العمر، وقيدتني إلى مكان لا يليق بي.

ندمت، أنني لم أنتبه إلا في وقت متأخر إلى أن تربيتنا كإناث على خدمة الجنس الآخر، هي التي قادتنا إلى عبودية متسلسلة. جعلتنا إماء لآبائنا، لأزواجنا، لأبنائنا عن طواعية. ندمت لأنني حملت شعارات زائفة، وقتًا طويلًا، و لم أدرك أن الهندي الأحمر، الرجل المتوحش في أفلام الويستيرن، هو الضحية، وصاحب الحق. وأن الكوبُويْ، الرجل الأشقر المتحضر هو الشرير، المغتصب.

صمت طويل:

- ندمي الكبير، أنني لم أشتر حذاء راقصة الفلامينكو المجهولة، الذي كان يباع في محل للخردوات بمدريد.

لأول مرة تُجلجل ضحكة المساعدة في الغرفة، ويفقد المقرر جديته تمامًا. هز كتفيه وبابتسامة واسعة:

- فوضى كبيرة في عقل هذه الجثة، كل شيء متداخل ومتشابك، القضايا الصغيرة تعادل القضايا الكبيرة، الخيال يعادل الواقع، الحياة تعادل الموت.. أليس هناك ملاحظة في التقرير تشير إلى أنها كانت مجنونة في مرحلة ما؟.. إذا كانت كذلك، يجب إعفاؤها منذ البداية من جلسة المساءلة.. المركز يعفي الأطفال والمجانين.

حركت المساعدة فأرة الكومبيوتر على الشاشة:

- لقد خلقث العديد من الشخصيات المجنونة. لكن، ليست هناك أية إشارة تلمح أو تؤكد جنونها الخاص. غير أن ما صرحت به ليس واضحًا.

التفتت إليّ مباشرة، نظرت في عيني بحدة أخافتني:

- ما هذا الجبن؟ أليس لديك القليل من الشجاعة لتعترفي صراحة ودون استعارات، أنك نادمة على الطريقة التي أدرت بها دفة حياتك؟.. كانت الحسرة تأكلك كل يوم، كلما استيقظت في نفس البيت، في نفس الغرفة، في نفس المطبخ. لم تكن لديك الشجاعة لتتخطي عتبة مطبخ استنفد سنواتك وهد صحتك. سنوات لم تجن منها غير آثار حروق الفرن على يديك، وسؤال فات أوانه: ماذا لو؟.. روحك كانت تتوق لبراري الحرية. كلما رأيت امرأة فكت قيودها، أكلتك الحسرة والندم. فقدان حياة جريمة نحمل ذنبها طيلة الموت. فلا تقولي إنك لست نادمة على شيء.

مكبر الصوت:

"إعلان هام: تستمر مداومة العمل دون انقطاع للفئات التالية: المقررون، المنظفون والمسؤولون عن قسم الشحن".

دون طرق أو استئذان، اقتحم الغرفة شخصان، يرتديان لباسًا واقيًا، كرواد الفضاء، بكمامات وقفازات، وجوههما لا ترى خلف واق زجاجي. ميزت علامة الصليب الأحمر على صدر أحدهما، وعلامة الهلال الأحمر على صدر الآخر. الأكيد أنهما من هيئة صحية دولية.. أخيرًا جاء منقذاي..

دخولهما لم يكن متوقعًا. بحركة آلية، وقف المقرر بيني وبين الرجلين، وحال دون وصولهما إليّ:

- نريد الجثة.

نطق أحدهما بأمر.

- ليس بعد، لم نُنهِ التقرير..

صرخت بما تبقى لديّ من قوة:

- أنا هنا، لست ميتة، النجدة.. أنقذاني.

لا صوت يخرج من الحنجرة.

- أيها المقرر، حان وقت تسليم الجثة- تدخل الرجل الآخر- ستنتهي مناوبتنا الليلية بعد نصف ساعة.

أجاب المقرر وهو يتحسس مسدسه:

- سيستمر العمل في المركز ليل نهار ودون توقف، خصوصًا

قسم الشحن، لن يتوقف حتى يمتلئ بطن الأرض.

- وصلتنا الأوامر، لكننا متعبان، ونريد العودة إلى بيوتنا. يمكنك التغاضي عن بعض الدقائق، نحن زملاؤك..

بنبرة حاسمة صرفهما المقرر:

- عودا بعد ساعة.

غادرا فانغلق الباب وراءهما أوتوماتيكيًا.

جهاز اللاسلكي:

"عثرت شرطة نيويورك على عشرات الجثث المتحللة في شاحنات نقل اللحوم، قرب دار الجنائز ببروكلين.. حوِّلْ".

7

بعد ليلة طويلة من الوقوف، جلس المقرر على كرسي في زاوية الغرفة. تأمل المشهد عن بُعد، سرير عليه جثة منهكة. أشعل سيجارة وتنفس بعمق.

أنا كذلك، استرقت النظر. تأملته وهو يمتص الدخان ثم ينفثه من أنفه. تهدل وجهه، اسودّ ما تحت جفنيه، ونبت شعر أبيض على ذقنه..

شعيرات بيضاء غزت شعر المساعدة. غارت عيناها. لكن وجهها مازال مشدودًا. ربما لخصائص تميز جلد الآسيويات، فلا يظهر عليهن أثر الزمن.

لأي مقياس زمني يخضع عالمهما؟ هل زمنهما أسرع من زمني؟ قد يكون عالمهما يتعامل بزمن الأحلام، وإلا ما جُلت بين الماضي والحاضر بهذه السرعة.

كم مضى من الوقت؟ في أيّ أيام الأسبوع نحن؟ في أي شهر، وأي سنة؟

قبل ساعات فقط، كنت في بداية فصل الربيع، في سنة كبيسة يتكون عددها من رقمين، صفر واثنين.

جهاز اللاسلكي:

".. أعلن البيت الأبيض أن الرئيس الأمريكي خضع لفحص فيروس كورونا، حوِّل.. أعضاء من الكونغرس في الحجر الصحي.. حوِّل".

أنهى المقرر سيجارته، خالف ذراعيه، فانحسر كم القميص عن الكثير من النمش يغطي ساعديه. أعلن بارتياح:

- إنها قالت كل الحقيقة. خبرتي في هذه المهنة علمتني أن الموتى لا يكذبون. افتحي النافذة كي تدخل الروح.

هل سيتركني أذهب؟ هل سأغادر هذا الكابوس؟

لأؤكد كلام المقرر، تخشبث، وكتمت نفسًا ضعيفًا كان ما يزال عالقًا في صدري..

مكبر الصوت:

"ننبه المراقبين إلى تعقيم الغرف بين حالة وأخرى، قسم التنظيف عند نهاية الممر.. ".

أخيرًا سأغادر هذه الغرفة، سأنزل هذا العالم عن كاهلي وسأتحرر.

تلوث بعضًا مما حفظته من صلوات الشعراء. ناديت روحي من الأعالي: أيتها الروح، أضيئي الطريق لهذا الجسد، كي لا يخطئ مثواه الأخير. ناديت السماء، تضرعت لساكنيها: أيتها الآلهة الصغيرة التي آمنت بي، وزرعت نبوءة الكتابة في صدري، انثري ذرات الروح على سفوح الجبال وأعالي البحار. احفظي جسدي من النسيان، ربما ذات حياة، يقذف بي ضوء، وكنجمة أعود من هناك.. يا ألله اغفر لي ذنوبي ولا تؤاخذني بأخطاء شخصياتي الروائية المجنونة..

- إنها تصلي.. لندعها تذهب.

اعترضت المساعدة على كلام المقرر:

- لا تدعها تذهب الآن، إنها لم تقل كل الحقيقة.

بصوت هادئ خاطبها المقرر:

- إنها ليست بذلك القدر من الدهاء والمراوغة، كما تعتقدين، هي مجرد امرأة مسكينة، لم تكن تعرف حقيقة ما عاشت. في هذا المكان فقط، اكتشفت ذلك. كانت تحتاج لخضَّة موت آخر كي ترى حياتها بوضوح. أنت تعرفين أكثر من أي شخص آخر، أن الحقيقة ترى بعين الموت. لأنها الجملة المكتوبة على بوابة المركز.

هاجمته بنبرة اتهام :

- دعني أنبهك، إلى أنكَ تساهلت كثيرًا مع هذه الجثة. أعهدك شديد الحياد، لم يحدث أن تعاطفت مع حالة ما. وقعت في شباك كلامها الشاعري، تغاضيت عن كذبها، أخبرتها بسر العالم العُلوي، والآن تتركها تذهب دون أن نعرف سرها الكبير، هل أفهم أنه انجذاب جنسي؟

احمر وجه المقرر حتى كاد ينفجر من الغضب:

- إنه تلميح في غير محله، هل نسيت أنني لاجنسي، وهو أول ما يشترط في المقرر؟.. عدلي ملاحظتك أو احذفيها.. ثم لا تنسي أنك تكلمين شخصا أعلى منك رتبة. أنا مراقب برتبة عقيد وأنت مجرد رقيبة.. ألم تسمعي الأوامر عبر مكبر الصوت، هناك وباء عالمي وقادمون جدد، اكتظاظ كبير، علينا إخلاء الغرفة.

زاد غضبه، ضرب الأرض بحذائه الثقيل، فاهتزت جدران الغرفة. انتفخت أوداجه وعروق وجهه. استدار ليخفي غضبه، فانعكس وجهه على زجاج باب الحمام. جمجمة فقط، ومحجران فارغان. هلوست:

- يا إلهي، هو ميت، انتهز لخبطة العالم، وفر من باب الموت المفتوح على مصراعيه هذه الأيام.

بصيص حقيقة قادني أخيرًا لسؤال اليقين:

من منا في دائرة الموت ؟ ومن منا في الحياة؟

أخيرًا لم يتبق من افتراضاتي غير الموت، الاحتمال الذي لم أجرؤ على التفكير فيه. هل أنا ميتة؟

من حكايات الوعظ التي كان يحكيها جدي، والأكثر إرعابًا لنا نحن الصغار، أنه في الليلة الأولى للميت في قبره، يزوره ملاكان: منكر ونكير. أصواتهما كالرعد القاصف، وأعينهما كالبرق الخاطف. ينتهرانه انتهارا تتكسر منه عظامه. يحاسبانه بسؤاله عما فعل من خير وشر في حياته. إذا غلبت أفعال الخير على أفعال الشر أضاؤوا قبره. وبشروه بالجنة.. فأكثروا من أفعال الخير في الحياة تُنِر طريقكم في الممات.

منكر ونكير ذكران، الشخصان في هذه الغرفة رجل وامرأة.

جهاز اللاسلكي:

"أعلن في إسلام أباد عن إصابة رئيس البرلمان الباكستاني بوباء كورونا ".

بدا الخوف على وجه المساعدة، من غضب المقرر، التزمت الصمت ولم تنطق بكلمة حتى هدأ:

- إنها لم ترحل تمامًا، دعني أطرح عليها سؤالًا أخيرًا.

دون أن تنتظر موافقته، وجهت إليّ السؤال:

- هل أحببتِ؟ أقصد حبّا في السنوات العشر؟

بصوت مازال يحمل غضبًا وضغينة أوقفها المقرر:

- أعترض، إنه سؤال خارج السياق، لنمرّ إلى سؤال آخر..

لأول مرة، ومنذ بداية الاستجواب، أحسست بمودة نحو الرجل، إنه يحاول إنقاذي، تجنيبي ذكرى مؤلمة..

مودة؟ كيف تبلورت مشاعر ودية في جو عدواني؟ كيف أصبحت أستعمل نفس مصطلحاته؟ الأكيد أن عقلي دخل منطقة خطرة، وعليّ أن أحذر. استجمعت قواي العقلية، تساءلت عن مصدر الإحساس برابطة القرابة الذي راودني قبل ساعات، نحو هذا المقرر. أليست هي رابطة الأسر أو الخطف، ما يسمى بمتلازمة ستوكهولم؟ حين تتعاطف الضحية المخطوفة مع الخاطف، وتعتبر عدم إساءته لها، إحسانا ورحمة منه.. فمتلازمة ستوكهولم تدمير لخلايا المقاومة النفسية.. الحذر ضروري وإلا سأنجر بقوة إلى هوة العدم.

خفت أن تغوص المساعدة عميقًا وتنكأ جرحًا قديمًا. ومع ذلك، قبلث التحدي، أجبت:

- الحب لعبة امرأة شابة، وأنا لم أعد كذلك. إذا صدقت حساباتكم وتقسيمكم لحياتي، فموتي السابق كان في سن الخمسين، يعني أنني عشت عمرًا ثانيًا وأنا على مشارف الستين، فبأي أسلحة كنت سأدخل معركة حب جديد؟.. والدليل أنني لم أكتب أشعار حب منذ سنوات... الحب رواية ممتعة، يلزمها تغيير الشخصيات في كل فصل. فالسفن التي تظل راسية في ميناء واحد ينخرها الصدأ. وأنا لا أجرأ على التغيير!

ابتسمت المساعدة بمكر:

- لن تخدعيني، أنا امرأة مثلك، لقد قرأت بين سطورك، وشممت بين الصفحات رائحة حب معتق، حتى ولو مت، ستظل روحكِ ترفرف على القبر المجهول..

بكل ما تبقى لديّ من قوة، خبأت السر عميقًا في الموت، تصاعد الدم وتدفق بسرعة غريبة في الشرايين. ورغم رنين جهاز التخطيط المنذر، قررت، أن لا أرحل حتى أصفي

حساباتي مع هذه المرأة. واجهتها بغضب:

- إنك تخرقين بندًا من بنود منظمة الصحة العالمية، تسيئين معاملة جثة، بالوخز المستمر بعصاك الكهربائية، وبالضغط على جرح يُعتبر وسامًا رفيعًا في حرب الحياة. لم تعامليني بما يليق بجثة "شهيدة الحياة". حفظ المقامات واجب حتى في الموت. إنّ التي أمامك ليست جثة عادية، فقد عاشت أرقى تجارب الحياة، مخاض الولادة، لذة الكتابة، متعة القراءة، حب الموسيقى، عشق السينما، دهشة السفر.. والأهم، أنها عاشت ألم الحب بعفة الأنبياء. إنها في مصاف الشهداء، "من عشق وعفّ ومات عاشقًا، مات شهيدًا ودخل الجنة"..

كنت أعرف، وأنا أتكلم، أنني أقدم دفاعًا أخلاقيّا ودينيّا لا يشبهني. ومع ذلك وجدته الكلام الصائب للدفاع عن كرامة جثتي كامرأة.

خرجت المساعدة عن طوعها، امتقع وجهها من الغضب، وتخلت عن تهذيبها:

- من الغباوة أن تظني أنني ضدك، لأنك أنايَ. أنا وأنت من

عالمين مختلفين، لكننا من نفس الكروموسوم. أنا غاضبة منك، من خنوعك من سلبيتك. تقريرك أغضبني كامرأة. كنت أنتظر عودة امرأة أخرى أكثر إيجابية وشجاعة، امرأة استوعبت درس حياة سابقة. منذ بداية المساءلة، وأنا أحثك على شجاعة الاعتراف. أنت لم تولدي لتكوني امرأة خانعة وخائفة، ولدت تحت نجوم لامعة وكواكب داعمة. لديك كل مقومات الريادة و السعادة. كان يكفي انتفاضة صغيرة منك، لتغيري حياتك وتكوني مثالًا لأخريات.. أعتذر عن قسوة التعبير، لكنني لا أحب الخانعات الخاضعات، اللواتي يختبئن خلف الموت لتبرير أخطائهن في الحياة. أنت ممن يعقن تقدم جنس الأنثى.. انظري ما فعلت بحياتك، حتى ذاكرتك تبرأت منك. صنعت حيوات آخرين على حساب حياتك. و اسمحي لي، لم يكن ما فعلت إيثارًا بل كان سذاجة منك. لأنه في الأخير- وكما ترين في هذه الغرفة- كل مسؤول عن جثته.

ربما أصابت المساعدة في الكثير مما قالت، لكنها لم تقنعني بالتخلي عن سري. السر إن انزلق من بين الشفتين، لم يعد سرّا. وسري أنا، أصر على أن يذهب معي إلى الموت. جثة بلا أسرار لا أحد سينبش قبرها، لا أحد سيتذكرها وستدفن في غياهب النسيان.

مكبر الصوت:

".. 150 حالة، لم تتمكن من الوصول إلى المركز، مازالت تائهة في شوارع غواياكيل بالإكوادور..".

لإنهاء التوتر، اقترح عليّ المقرر:

- لا بريد بين العالمين، لكن لديك الحق في رسالة واحدة، توجهينها لشخص واحد. لك أن تختاري الشخص الذي ترغبين في مراسلته. رسالتك ستصله بعد أيام، في حلم من أحلامه.

احترت، فيمن أختار من أقربائي. الرسالة هدية ملغومة، وتعذيب نفسي. هل أرسلها لأمي؟ لقد سبق وأرسلت لها رسالة مطولة عبر رواية "اللواتي". هل أبعثها لأحد من أبنائي؟ كيف سأختار واحدًا دون الآخر، أنا لا أميز بينهم في المحبة؟

لمن سأبعث الرسالة؟

لأشاكس المساعدة، أعلنت:

- سأختار الله، سأوجه رسالتي إليه.

اتسعت حدقتا الرجل. لأول مرة يبدو مفاجأً بكلامي، لكنه في ثانية استعاد حيادية وجهه:

- الله لا يحتاج رسائل للتواصل، يكفي أن تفكري بخشوع، وستصله رسالتك..

المساعدة ترفع عينيها عن الشاشة وبخبث وشماتة:

- هل ستطلبين منه المغفرة؟.. فات الأوان.

- لا أحتاج لاستغفار. خطاياي تخيلتها ولم أرتكبها. لن يحملني الله خطايا نساء متخيلات، الشخصيات قد تُفلت من الكاتب أحيانًا.

- الحلم والتخيل نية الفعل سيدتي، حين تخيلت فقد فعلت.

تنأى بنظرها عني وتغرق في الشاشة.

- هل أستطيع أن أبعث الرسالة إلى ميت؟

- عليك أن تستفيدي من هذه المنحة لمراسلة أحياء، بعد قليل ستلتقين ميتَك، وقولي له مباشرة، ما لم تجرئي على قوله له وهو حي..

- هل تظن أنني سألقاه في هذه الزحمة؟..

هز المقرر كتفيه مشككا.

صوت اللاسلكي:

".. اعترف رئيس الإكوادور بأن بلاده تواجه تكدس ضحايا فيروس كوفيد-19 المستجد.. فوضى مرعبة، المشارح ممتلئة، والجثث مرمية في الشوارع..".

استسلمت:

- فلتكن رسالة اعتذار لجسدي.. قلتَ إنني لم أمت تمامًا. أريد أن أعتذر له قبل الانفصال، وحده يستحق مني الاعتذار.. لكن بماذا سأكتب ويداي مقيدتان؟

- اكتبي بقلبك، مازال فيه رمق من الحياة.

موقف المقرر وتعاطفه، حرَّراني نهائيّا من خوفي وغضبي تجاههما معًا، وتحول إلى ألفة، ألفة حذرة.

جهاز اللاسلكي:

".. خبر عاجل من البيت الأبيض: أعلن الرئيس الأمريكي اكتشاف علاج لفيروس كورونا، بحقن الرئتين بالمعقمات والمطهرات، لأنها أثبتت فعاليتها في علاج الأسطح والشوارع.. الخبر لم تؤكده جامعة هوبكنز وأثار سخرية المنابر الصحافية".

فوق رأسي، بدأ جهاز تخطيط القلب في إرسال ذبذبات تتجمع وتبعث صوتًا يجوب الغرفة بخشوع الأموات:

"جسدي المِسكين.

ها قَدْ وَصَلْنا اللَّحْظَةَ التي خَشيناها معًا، المُنْعَطف الأخير، علينا أن نفترق، أن أودعكَ وأترككَ هنا، لأنزلَ المُنحدَر وحْدي.

الآن عليَّ أن أعترفَ وأعتذرَ عما سببته لك من آلام. كان سفرًا متعبًا، حياة صعبة عليكَ وعليّ، في عالم مُختل.

كمْ مرة سَقيتكَ سُمّا ناقعًا اسمه الوهم، وقلتُ لك: "هذا إكسير الحياة فتذَوَّقه على مهل". وكلما صرختَ أنه مرٌّ بطعم الخِيانات، وأنني أسعى لحتفك، أغمضتُ عينيّ عنِ الحقيقة. كم مرة نَبّهْتَني أنَّ ما أراهُ سراب وليس نبع ماء، فنهرتُك: "انْظرْ بِقلبك لا بعيون جَسَدٍ فانٍ".

كم مرة قلتُ لك: "غادِر، سِحْ في الدنيا كمتَصوفٍ، اتخذ لكَ مريدًا ولَقنهُ مبادئ الحب، خَفِّفْ عواءَ الذئبِ في جسَده واجعلْ منه رجلًا يغرقُ في دمعة أنثى". فتعود إليّ مِزقًا، تصعدُ إلى برج الصمت، تُسدلُ ستائر اكتئاب مُزْمنٍ لتلوك يأسك وألمك خفية عني.. فآمرك: انزلْ عن برج الصمت، غَنِّ الحب بأعلى صوتك، فالكُرْهُ لا يليقُ بجسد طَهَّرهُ الموتُ مرَّتين.

كمْ مرَّة أرغَمْتُك على الركوع للأنذال وقلتُ لكَ: "أنتَ فوقَ نذالة البَشر".

وكنتَ تصرخ: "ما أنا إلا جسد ضعيف، فكيفَ أتَحَمَّلُ كلَّ هذا الألم". أبلسم جرحك: "لا عليكَ، رفيقي، الألم حكمة الناضجين، تمرينٌ على ضَجَر الحياة، فعبِّئْ جِرار خريفك منه ما استطعت، هو حصانةُ كهولة آتية لا محالة".

كم مرة بكيتَ، على الموت المتطاير من شاشة التلفاز، بؤس العالم ومخلفات الحروب. خدرتك بحُلو الكلام: "اهدأ ونَمْ، هذه ليستَ حروبنا، حربُنا أنا وأنتَ ضدَّ قطرة دمٍ صغيرةٍ تحَجَّرَت في الشرايين".

كم مرة ضَبَطْتُك جاثيًا، باكيًا، أمام باب الله، مُتَوَسِّلًا مغفرةً لِخَطاياكَ، وكنتُ أُرَبِّتُ على دُلِّكَ: "قُمْ أيها الأحمقُ الضعيف، ليست خطاياكَ، المشاعرُ كما الأفكار، يُصَنِّعُها العقل، وما قلبك إلا مُوَزِّعٌ".

لم أسألكَ يومًا، عمَّا تريدُ وما لا تُريد. كنتُ أقودُك إلى حتفكَ ظنّا مِنِّي أنني ذاهبةٌ بكَ إلى الحياة، أقودُك للهاوية ظنّا مِني أنها صُعود، إلى الكراهية ظنّا مني أنها محبة.

حتى حين حدثت المعجزة وفرحتَ، شرقتُ أنا بجرعة الفرح ومتُّ.

أجْهَدْتُك بِخَساراتي، خيباتي، سذاجتي. فتَقَبَّلْ اعتذاري، وانْزِلْ عَنِّي الآن، هذه المحَطَّة الأخيرة قبلَ الهاوية".

جهاز اللاسلكي:

"آلاف الإصابات يوميًا بالوباء في روسيا.. حوِّل. الكريملين يؤكد إصابة رئيس الوزراء، ووزير البناء ووزيرة الثقافة بفيروس كورونا.. حوِّل ".

أحسست برغبة في النعاس. الإحساس الوحيد المريح، في هذه الغرفة، هو تلك الرغبة اللذيذة في الاستسلام للنوم.

- أريد أن أنام..

- ستنامين بعد قليل، إننا في الفصل الأخير. علينا فقط التأكد من أن ذاكرتك أصبحت فارغة تمامًا. هناك حيث تذهبون حياة جديدة، بداية من الصفر.. المشكل أن داخل كل إنسان وعي ثانوي، خانة خاصة بالمآسي والصدمات، غائرة بين الثنايا. في الحالات المستعصية نلجأ إلى الفحص بالأشعة، كي نتأكد أنها أصبحت فارغة. لا أظن أننا سنضطر للفحص، معك أنتِ.

لم أكن أريد أن أخبره بذلك، لكن إلحاح النوم، وتحت ضغط نظرته المتشككة، أخبرته:

- بقي مشهد واحد في الذاكرة. آخر صورة قريبة وواضحة تمامًا.. أنا في بيتي، أرتدي منامة زهرية. أجلس أمام التلفزيون في غرفة المعيشة. أشاهد برنامجًا وثائقيّا عن كرة صغيرة حمراء ناتئة. كرة لا تُرى بالعين المجردة، تتجول في شوارع فارغة، تطير بين المدن والدول والقارات. تتسلل إلى بيوت الأغنياء والفقراء، والملوك والوزراء، تمتص الهواء من صدورهم، وتحصد الأرواح بالآلاف.. رعب وموت لا ينتهي.. معد البرنامج، نفسه، لا يعرف نهايته. حتى المذيع كان في حجر صحي، لا يعرف إن كان سيموت أو سيحيى.. كنتُ جزءًا من المشهد، أجلس في أحشاء الكاميرا، ألتهم الطعام بشراهة وأبكي بحرقة مدنًا عرفت خطوي، وهي تفرغ موتاها بحاويات في مقابر جماعية.

آخر ما أذكر، أنني أطفأت التلفاز خوفًا من أن تقفز الكرة الحمراء الناتئة من الشاشة إلى صدري.

مكبر الصوت:

"الكرة الأرضية موبوءة، مئات الآلاف في الطريق إلى المركز، قادمة من 172 دولة.. لم يبق مكان آمن على الأرض ."

- جيد، علق المقرر، ثم سألني:

- هل لديك كلمة أخيرة؟ من حقك كلمة أخيرة، لكنها غير قابلة للتدوين، هي فقط جبر للخاطر، "Bonus" يقدمه المركز. لن تدونها المساعدة.

حدقت فيه بعينين واسعتين، وبشجاعة أدهشتني، خاطبته دون خوف أو وجل:

- كلمتي الأخيرة لكَ. أنت الحقيقة، آخر الكلام والختام. كل افتراضاتي، تخميناتي، كانت خاطئة في الحياتين. طوعت النسيان أكثر من اللازم، فنسيتكَ. نسيتُ لقاءنا منذ عشر سنوات على سرير المشفى، وجولتنا في النفق.. أنت العاشق الوحيد الذي طاردني، مسافة العمر، بشغف وإلحاح.

منذ حينها، وأنا سجينة ظلال النفق. لم أكن أنا التي هنا ولا تلك التي هناك. كنت جثة مُحنَّطة، صورَة مُعَلَّقَة في الفَراغ.

لم تكن هناك عائلة ولا بيت ولا حياة، كنت أنت فقط، شبحًا يطاردني، يراني ولا أراه، تتلمس ندوب الظلمة على حائط ليلي، وتتغذى على جثث ماضيّ.. فكيف لم أتذكرك؟

المقرر متوتر. يجوب الغرفة ذهابًا وإيابًا، محرجًا من كلامي. يبدو، واضحًا، أنه لا يريد تلميحًا حول علاقتنا ولقائنا السابق أمام المساعدة.

احترامًا لخصوصيته، سكت.

حين اقترب مني، ودون أن تسمعني المساعدة، وشوشت له:

- لقد سبق وعرفت شخصًا يشبهك، له نفس الندبة الهلالية في نفس المكان على يسار الجبين، اسمه "خوان رودريغو" أمية، كان يعمل حارسًا لنفق، هل أنت نفس الشخص؟

راوغني:

- لا أستطيع أن أجزم، كمقرر تنقلت بين أنفاق كثيرة. هناك ما لا يحصى من الأنفاق الخاصة بكواكب أخرى، غير هذا

النفق الخاص بسكان الكرة الأرضية.

جهاز اللاسلكي لا يتوقف عن الطقطقة وإرسال الأخبار بتواتر زمني سريع:

".. نقص في الِكمامات والقفازات الطبية، الأطقم الطبية تفتقد لأبسط أدوات الوقاية في إيطاليا إسبانيا فرنسا والولايات المتحدة، حوِّل..".

"ألمانيا تتهم الولايات المتحدة بقرصنة 200 ألف ِكمامة طبية كانت متجهة إلى برلين.. حوِّل".

"الرئيس الأمريكي يهدد بالانتقام الشديد، في حال لم تأخذ بلاده ما يكفيها من الِكمامات، حوِّل.. "اندلاع حرب عالمية ثالثة"، حرب الكِمامات. حوِّل".

لا مبالاة المقرر بما يصل عبر اللاسلكي غاظتني. برود غير عادي من رجل عسكري، تجاه أخبار أحداث قد تؤدي إلى فوضى أمنية في العالم.

8

- أظن أن المرأة اكتفت من الحياة.. إنها جاهزة.

همس المقرر في أذن المساعدة.

في تلك اللحظة، عادت الممرضة السمراء، تحمل ملفًا طبيًا. هذه المرة لم تكن تعتمر القبعة البيضاء، وشعرها المجعد مسترسل خلف ظهرها:

- إليكم نتائج تحليل الدم، لقد وصلت فورًا من مختبر المركز، تؤكد أن أنزيمات الموت أكثر بكثير من أنزيمات الحياة، لاشيء يشدها إلى العالم الآخر.. تقييم مدير المختبر هو أن حالة فشلت في حياتين، لا حق لها في حياة ثالثة.

أخذ منها المقرر الملف، انتهز الفرصة ليلمس أناملها خفية، وبحماس مرح أفلت صرامته:

- حتى من دون تحاليل، الاستجواب يؤكد أن هذه المرأة جاهزة للرحيل.

- إذا سأرسل الطبيب ليسجل شهادة الوفاة.

قالت الممرضة وهي تغادر الغرفة.

- هل تريدين رؤية نفسك للمرة الأخيرة؟

سألني المقرر.

حركت رأسي نافية:

- أفضل أن أحتفظ بصورة الحياة.

جهاز اللاسلكي:

".. وفقًا لموقع بيزنس إنسايدر، البرازيل تتحول بشكل مرعب إلى أكبر بؤرة وبائية في أمريكا اللاتينية.. ساو باولو تُخلي المقابر من ساكنيها الذين ماتوا قبل ثلاثة سنوات لدفن ضحايا كورونا، حوِّل..".

ربما لم يكن المقرر، طيلة الوقت، يسمع إرساليات اللاسلكي،

وأنا الوحيدة في الغرفة من يلتقطها. فإذا كانت لهم القدرة على برمجة صوتي، فما الذي يمنعهم من برمجة حاسة سمعي؟

أثلجت الغرفة، لكن حرارتي ارتفعت بشدة، لو اقترب مني المقرر أكثر لأحرقته.

ينخفض السقف وينزل تدريجيّا، يجثم على صدري ويضغط بقوة على ضلوعي، حرارة الإسمنت تحرق أحشائي.

صوت يوشوش في أذني، صوت من داخلي:

- لا تموتي، قاومي، لا تسقطي في الظلام، ابقي على قيد الحياة، أو على الأقل على الحياد. سأخرجك من هنا، سنذهب معًا إلى كوكب آخر، حياة جديدة، طبيعة بكر، سيكون الهواء نقيا سالكًا في رئتيك.

أتكئ على حاشية السرير الحديدية، أقطع الحبال الضوئية. أقف، وبسرعة البرق أغادر السرير نحو الباب إلى الممر. أجري بكل ما أوتيت من قوة، والمقرر يجري خلفي. أطرق أبواب الغرف وأصرخ: "افتحوا الأبواب، النجدة، رجل مصاب

بفيروس كورونا يطاردني..". كما لو أن صراخي أطلق جرس إنذار، خرج أناس كثيرون من الغرف، يجرون في نفس الاتجاه، حتى امتلأ الممر عن آخره، وسدت منافذ الخروج.. أصطدم بأذرع مستنجدة وأرجل هاربة.. ضغط عليّ الحشد حتى انقطعت أنفاسي، ومع ذلك تابعت الجري، وأنا ألتفت خلفي بحثًا عن المقرر، أتعثر في شيء لدن، إنها جثتي، ألهث.. أسقط على سريري.

المقرر يقيس حرارتي :

- لقد تجاوزت حرارتك أربعين درجة. نصحتك في الأول أن لا تثقي في تهيؤاتك، خاصة في أصواتك الداخلية. لقد أجهدت نفسك، وها أنت قد فقدت رمقك الأخير بسرعة..

مسح العرق المتصبب بغزارة من جبيني.

لم أصدقه، طيلة حياتي أصدق فقط حدسي. حدسي لا يخطئ أبدًا. هذه روحي تسللت من بين الشقوق وجاءت لتنقذني. أعرف روحي، روح وفية، لن تتخلى عن جسدها في هذه المحنة. أكيد ستعود مرة أخرى، حين تعرف حقيقة ما يقع، وتصطحبني إلى الخارج.

مكبر الصوت:

"إعلان لقسم الشحن: حالات قادمة من البرازيل، ستشحن إلى مقابر بحرية مؤقتة، ريثما تجد الحكومة حلّا لنقص المقابر".

قامت المساعدة، أعلنت براحة كبيرة:

- لقد انتهينا، لم يبق إلا توقيعك سيدتي.

كانت عرجاء، برجل اصطناعية.

اقتربت مني، أخذت إبهامي، غمسته في الحبر الأسود، بَصَمت أسفل آخر صفحة، فتمددت لطخة الحبر الأسود وحجبت الشاشة. أعادت الإبهام إلى مكانه، وأسدلت الغطاء على وجهي.

انسحبت المساعدة أولًا، تبعها المقرر وهو ينادي بصوت مرتفع:

- الحالية التالية.

مكبر الصوت يوقف الموسيقى العسكرية ليعلن:

"آخر إحصائيات المركز تؤكد استقبال أكثر من ربع مليون وافد خلا ل الثلاثة أشهر الأخيرة.. المعطيات والأرقام غير نهائية، الأحداث جارية".

توقفت الجلبة في الممر وصوت المكبر. من أعماق الصمت، سمعت صوتي في الممر. كنت أسأل عن رقم الغرفة التي توجد فيها جثتي. وصوت ناعم لامرأة، قد يكون صوت الممرضة السمراء، يجيبني:

- انتظري سيدتي، سيخرجونه بعد قليل، لقد أنهوا التقرير للتوّ.

تدخَّلَ صوت يشبه صوت أمي:

- ألم يكن من الممكن أن تسمحوا لها، على الأقل، أن تحتفل بعيد ميلادها الستين؟

- إنه المكان الخطأ للاحتفال بالحياة، سيدتي.

هدوء تام في الغرفة.

كنت قد أغلقت جفنيّ واستسلمت لغفوة لذيذة، حين دخل الطبيب، أو هذا ما خُيِّل لي. أزاح الملاءة البيضاء، تأمل ما يفترض أنه وجهي الساكن في العتمة، وبأنامل معتادة على بكاء الموتى، مسح دمعة نازلة على خدي، أعاد الملاءة على الوجه. على لوح مثبت في مقدمة السرير دوَّنَ:

ساعة الوفاة : السابعة صباحًا.

تاريخ الوفاة: 25 مايو 2020.

سبب الوفاة: تجلط في القصبات الهوائية بسبب فيروس كوفيد -19.

ملاحظة: الحالة كانت تعاني من مرض تخثر الدم المزمن. لديها سابقة تجلط حاد، وانسداد في شرايين القلب والرئتين، منذ عشر سنوات.

تُؤخذ الجثة إلى الطابق الأرضي.

فجأة، اختفى الطبيب، انهارت جدران الغرفة، وتحول المكان إلى نفق طويل في نهايته ضوء لامع يشفط الأجساد بنعومة.

تنفست بعمق وارتياح، أيقظت روحي ومشينا معًا نحو الضوء!

***

تمت بتاريخ: 25 مايو 2020

صدر للكاتبة

في الرواية:

ليالي الحرير: عن مكتبة الدار العربية للكتاب القاهرة، مصر. الطبعة الأولى، ماي 2013. الطبعة الثانية سبتمبر 2013.

حفيدات جريتا جاربو: عن الدار المصرية اللبنانية، القاهرة. الطبعة الأولى ديسمبر 2015. الطبعة الثانية فبراير 2016 (جائزة كاتب ياسين، الجزائر 2016).

الحياة من دوني: عن مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة. الطبعة الأولى، ماي 2018. الطبعة الثانية 2019 (جائزة أفضل رواية عربية - معرض الشارقة 2018).

في القصة القصيرة:

بنات الكرز: عن الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 2017.

في الشعر :

مساءات : منشورات دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب 2001.

أرق الملائكة: منشورات دار عكاظ، الرباط، المغرب 2002.

شرفة مطفأة: منشورات دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب 2004.

ليلة سريعة العطب: منشورات دار النهضة، بيروت، لبنان 2007. الطبعة الثانية منشورات مرايا، طنجة، المغرب 2009.

خَلْوَةُ الطير: دار ورد للنشر، دمشق، سوريا 2010.

السابحات في العطش: منشورات بيت الشعر، المغرب 2015.

حوريات البحر: قصائد للفتيان بالفرنسية والعربية، رسومات الفنانة الإيطالية Malavasi Samanta، دار مرسم الرباط، المغرب 2015.

التسامح بالألوان (درس في الرسم): قصائد للفتيان بالفرنسية والعربية، رسومات الفنانة الإيطالية Malavasi Samanta، دار مرسم، المغرب 2016.

حديث مدفأة: حقيبة فنية بالاشتراك مع الفنان التشكيلي عبد الله الحريري، سلسلة "livre pauvre"، تور 2007. صدر هذا العمل ضمن كتاب Richesse du livre pauvre، عن دار غاليمار، باريس، فرنسا 2012.

صديقي الخريف: حقيبة فنية بالاشتراك مع الفنان محمد بناني، عن دار مرسم، الرباط، المغرب 2009.

تُرْجِمَتْ أعمال الكاتبة

للغة الإسبانية :

- La soledad de la arena (عزلة الرمل): منشورات "ألفار" وجامعة اشبيلية، إسبانيا 2006.

- Dspliego mis alas (أفرد جناحي): منشورات جامعة سان خوسي وبيت الشعر بسان خوسي، كوستاريكا

.2009

- Cicatriz de la luz(نَدَبَةُ ضوء): عن مؤسسة محمد السادس للحضارات، سانتياغو، الشيلي 2010.

- Noches de seda (ليالي الحرير): ترجمة إسبانية للرواية عن دار فيربوم للنشر بمدريد، إسبانيا 2015.

- Noches de seda: طبعة ثانية للترجمة الإسبانية (لليالي الحرير)، عن دار ألتزار للنشر، سانتياغو، الشيلي .2015

للغة الفرنسية:

- Insomnie des anges (أرق الملائكة): مختارات شعرية، منشورات مرسم بدعم من مصلحة العمل الثقافي بسفارة فرنسا، الرباط، المغرب2007.

- Flair de louve (حدس ذئبة): مختارات شعرية عن دار لارمتان، سلسلة أكسون تونيك بباريس، فرنسا 2013.

- Entre les replis des vagues (بين طيات الموج):
مختارات شعرية عن دار لارمتان، باريس2017 (جائزة سيمون لاندراي للشعر النسائي، باريس 2017).

للغة التركية:

- قنديل الشاعر: مختارات شعرية عن دار ديغراف للنشر، اسطنبول، تركيا 2006.

- حنين المطر: مختارات شعرية، منشورات آرشوب، إسطنبول، تركيا 2010.

للغة الإيطالية:

- تَوَهُّج الليلك: مختارات شعرية عن دار النشر الخيراسولي، ضمن سلسلة "إيفيستو"، سيسيليا، إيطاليا 2012.

